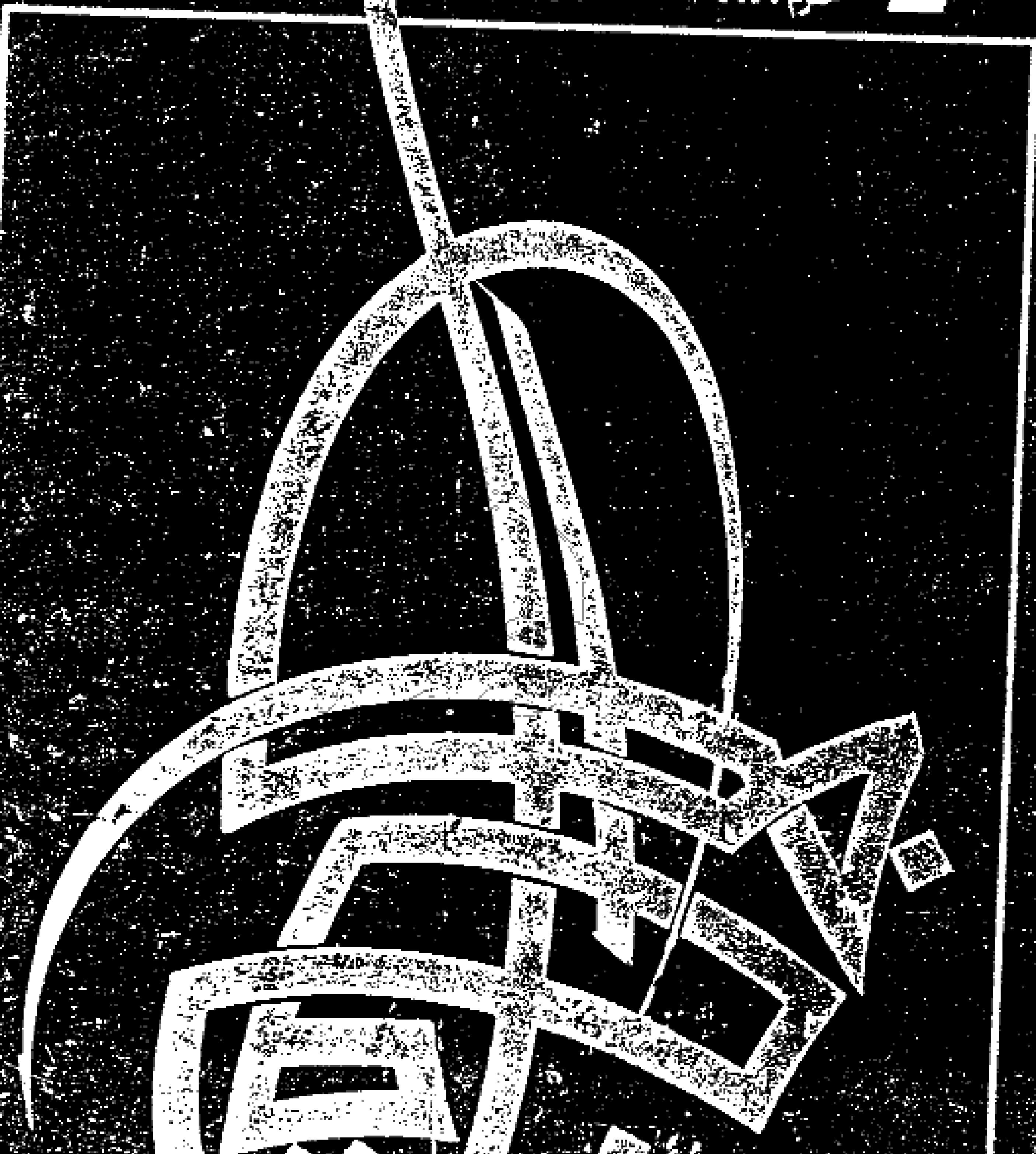
دراسات أندلسية

محرم 1414 عدد 10 جوان 1993



مجلّة دراسات أندلسيّة

مجلّة علميّة مختصّة في الدّراسات المتعلّقة بإسبانيا الإسلاميّة

*****

مؤسسها ومديرها

جمعة شيخة

تصدر المجلّة مرّتين كلّ سنة في جانفي وجوان.

ثمن الاشتراك السنوي : 10 دينارات تونسيّة

ثمن النّسخة : 5 دينارات تونسيّة

تسدّد قيمة الاشتراك عن طريق حوالة بريديّة في الحساب الجاري 94 ـ 543 تونس أو بواسطة حوالة بنكيّة (وفي هذه الحالة يكون مقابل التحويل البنكي على حساب المشترك).

توجّه المراسلات بأسم مدير المجلّة إلى العنوان التالي: د. جمعة شيخة.

ص.ب. رقم 51 ـ 1008 تونس ـ باب منارة ـ الجمهوريّة التونسيّة ـ تلفون : 227.616.

مجلّة
دراسات أندلسيّة

العدد العاشر
1993/1414

طباعة : مطبعة وفاء 785.879

تونس

الفهـــــــــــرس

* * * * *

تصدير

الشّمعة الخامسة

تطفئ مجلّة «دراسات أندلسيّة» بصدور العدد العاشر منها شمعتها الخامسة. وفي ذلك أكثر من دليل :

أولا: إنّ المبادرة الفرديّة في الميدان الثقافي لئن نجحت نسبيًا، فهي مازالت في حاجة إلى دعم أدبيّ وماديّ من أوساط مختلفة لما يعترضها من صعوبات جمّة وعراقيل شتّى.

ثانيا: لقد ظنّ بعضهم بعد أن نزل حجم السّحب من العدد التّاسع إلى أكثر من النّصف أنّ العدّ التنازلي لدراسات أندلسيّة قد انطلق. وأن النّهاية قد لاحت وظهرت.

ثالثا: إذا كان الأدب مأساة أو لايكون، فإنّ الثقافة في العالم الثّالث هي تحدّ أو لا تكون . وبالنّسبة إلى مجلّة «دراسات أندلسيّة» عوض أن يرتفع ثمنها بنقصان السّحب وازدياد كلفة الطّبع والإنتاج، وقع المحافظة على نفس الثمن في محاولة منها لكسر الحلقة المفرغة التي تعيشها جُلّ المجلاّت المختصّة.

رابعا: إنّ هذا الإجراء العسير لهُو من المجلّة تضحية جديدة في سبيل البحث العلمي المختصّ ببلادنا. وهو يبعدها من جديد

أكثر فأكثر عن الوصول إلى تغطية نفقاتها. ونرجو أن تتفهّم كلّ الأوساط داخل البلاد وخارجها ذلك . ففيه عزاء لمن يؤمنون بقيم ثابتة فيتحمّلون الجهد والعنت، ويعملون بصبر وثبات، دون انتظار لربح أو جزاء.

خامسا : إن مجلّة «دراسات أندلسيّة» بهذا التّحدّي وتلك التضحية تحاول في هذا العهد الجديد - وقد راهن على الثقافة عنصرا من عناصر التّنمية - ترسيخ مبادىء أساسيّة للبحث العلمي ببلادنا، وتساهم مع الجمعيّة التّونسيّة للدّراسات الأندلسيّة في خلق حوار بين حضارات عريقة أثّرت وتؤثّر في ضفّتي البحر الأبيض المتوسّط الجنوبيّة والشماليّة. وهذا كاف، لمن يؤمن بالثقافة الحقّ، لتبرير التحدّي الكبير والتّضحية الجسيمة ./.

د. جمعة شيخة

جدليّة المماثلة والمقابلة في «التوابع والزّوابع» لابن شهيد (القسم الثاني)*

بقلم الأستاذ : توفيق بكّار
كليّة الآداب : منوبة

2 . القصّة المضمّنة

هي بلا ريب لبّ الرسالة شكلا ومعنى وبأفانين من التّشويق قد استفزّ الكاتب تطلعنا إليها. ولكن الدهر أتلف منها ما أتلف ولا نعلم عنه شيئا. كانت «البعض» الذي اصطفاه لنا ابن شهيد في رسالته من عجيب ما جرى بينه وبين زهير تابعته. وإذا من ذلك البعض لم يبق إلاّ البعض الذي اصطفاه لنا ابن بسّام في ذخيرته من بدائع الأدب. تلك حال النصّ فكيف العمل ؟

يمكن لعالم الحيوان لسعة معرفته بالأجناس أن يستنبط من بعض القطع الموجودة كامل الهيكل العظمي لأحد الوحوش البائدة، كما يمكن لعالم الأفلاك أن يستنتج، بدقّة الحساب من انحراف مسار بعض الكواكب، وجود نجم مجهول لا تدركه المراصد بمناظيرها. ولا يمكن مثل ذلك لمحلّل النّصوص ولا سيّما منها هذه الرّسالة، فهي عنده الأولى من جنسها، ليس لها سابق يقيسها عليه، بل هي المرجع تقاس عليها اللّواحق. والممكنات الكامنة فيها تسمح لذهنه بتصوّر أكثر من خطّ لتطوّر أحداثها. أمّا وقد امتنع عنه تخمين المفقود فلا بدّ له من اعتماد الموجود كما هو، ويكفيه منه أنّ فصوله، على ما تخللها من فجوات تطرد، لحسن اختيارها، في نسق له من المعقوليّة ما يجعل التّحليل جائزا مفيدا. أمّا الحلقات الضّائعة، فحسبه أن ينبّه إليها كلّما أحسّ بأثر غيابها.

ومن الخير يلتمس ذلك النسق . فما حقيقته ؟

جماع الأحداث «رحلة» تنطلق من عالم الإنس ذات يوم وفي عالم الجنّ ذات يوم، تنقطع بانقطاع الموجود من النصّ فلا ندري ما كان في الأصل ختامها : أعاد الكاتب نفسه، وهو بطله، إلى دنياها بعد أن طوّح بها في عالم الشّياطين طويلا ؟ أم نسي أن يعيدها كما نسي محمّد المويلحي أن يردّ باشاه إلى القبر الذي منه كان قد أخرجه في شبه منام، فظلّ في حلمه لم يستيقظ منه إلى الآن. وكما ترك المعرّي قبله ابن قارح في سرمد الجنان بعد أن صعد به إليه في سلّم التداعي، ولم يعد فيهبط به أرض الزمان حتّى يثبت «جملته الاعتراضية» مفتوحة على وجه الدّهر؟ إنّ منطق الأفعال يقضي في القصص بتلازم الذهاب والإياب، فلا غدوّ بلا رواح إلاّ في المأساة وقصّتنا من الملهاة. أم أنّ السّفر إلى ما وراء الواقع من مثل تلك البقاع لا يكون أبدا إلاّ كما خشي أبو هريرة أوّل بعثه «رحيلا ليس بعده عود» ؟ فيما لم نحصل على

(*) انظر القسم الأوّل في مجلة : «دراسات أندلسيّة» عدد 3 سنة 1989 ص 71.

النّص كاملا يبقى السّؤال معلّقا بلا جواب. وبعد فإن أعيانا أمر النهاية فدرتنا البداية وهي بلا إشكال.

فأوّل الرحلة خروج من أرض الإنسان إلى أرض الجان. وتقع خلف الحجب في نقطة ما بين دُنيانا والسّماء. بمعجزة بلغها البطل، طار به إليه صاحبه زهير على صهوة جواده. خارقة أخرى تذهب بنا شوطا جديدا في عالم الخرافة. ولو كان لهذا الحصان جناحان لربّما ادّعى بعض من تعصّب علينا من غلاة المستشرقين أنّه نُسخة منقولة من «بيقاس» اليونان. مركب الأرباب في ميثولوجيتهم. ولكنّه «أدهم» العربي من عتاق خيولنا الشّعريّة. إلى أولى المعلّقات يرقى نسبه العريق وكم سمعناه من وقتها يركض حسّا ومعنى في الأبيات :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا...
رِجْلاهُ في الرَّكْضِ رِجْلٌ والْيَدانِ يَدُ... الخ...

فمازال الشاعر يمتطيه في «رحليه» داخل القصيد من غرض إلى غرض، حتّى طار به خارجه إلى أرض الشّعر في رحيل جديد من قصيد إلى قصيد». وهل من الصّدفة أن انقطع ذكره في الرّسالة بانقطاع الحديث عن الشّعر، الجادّ منه على الأقلّ؟ ولا علاقة له ببُراق الرّسول في قصّة المعراج فذاك من وحي الدّين، وهذا من همس الشّياطين، وما رفعته إلى السّماء نفحة من روح القدس، بل نفثة من سحر الخيال كالّتي أطارت المردة والسجّاد ببعض العباد في حكايات ألف ليلة وليلة. فالذّهنية الواحدة تُنتج نفس الخرافات. فهي جميعا «صواريخنا» في الفضاء قبل الصواريخ قرّبتنا بها بين العوالم. لنا فيها بلا نزاع بعض الريادة لولا أنّها مراكب وَهْم. أمّا مراكب العلم في الغرب اليوم فلا جواد لنا فيها ولا سجّاد. كأنّنا قد رضينا أن يكون لنا الخيال الخلاّق في مقابل ما لهم من العقل الخلاّق. لنحلم إذن بعفاريتنا السّحرية ولنتركهم مع أقمارهم الصناعيّة، أما قال لنا شاعرنا الرصافي منذ سبعين سنة :

نـامُـوا ولاَ تَسْتَيقِظُـوا   مَـا فَـازَ إلاّ النُّـوَّمُ

فها نحن، والحمد للّه، نغطّ في سبات عميق.

وبطيران الحصان تنعكس حركة الأحداث فيتبدل مسرحها من الواقع إلى ما فوقه وتتغير الأدوار. كان البطل يستقدم صاحبه من أرضه للاستلهام. فها هو يقدم إليها رفقته للمباهاة. لقد شبّ عن الطّوق و«صادف شنّ العلم طبقة». فانتهى عهد التّضمين والتّلقين واكتملت العدّة وحان وقت الاعتراف له بالكفاءة. وليقنع صاحبه بعد دور البديل بدور الدليل كان يهديه سبيل الشعر، فحسبه الآن أن يهديه سبيل الشعراء.

وتوغل بهما الرحلة بين الجان.

ومن طرافتها أنّها تجري في حيّزين معا. حيّز المكان تنقّلا من موضع إلى آخر، وحيّز البيان تجوّلا بين النصوص.

والمكان «أرض لا كأرضنا» لها «جوّ لا كجوّنا». خرافة قديمة هي أيضا هذه الأرض. إلى «وادي عبقر» يرجع أصلها. فكرة نجمت منذ قرون في دماغ الجاهليّين وتردّد

ذكرها في الأشعار والأخبار. اشتقرا لكلّ شاعر شيطانا يلهمه وأسكنوه في غياهب تلك الأغوار. ولا ندري ما الذي أغراهم بها، لعب «الجناس» أم تداعي «الحوار»؟. فبين الشاعر والساحر من القرابة ما يدلّ عليه تشابه الاسمين. كلاهما ينطق بغيب الأسرار، وبين الساحر من النّاس والوسواس الخنّاس نسبة ما بين الموحي والترجمان. وأعجب بها من فكرة أوحاها إليهم الخيال فصارت هي التي توحي إليهم بالخيال. على أنّها ظلّت على مرّ الزّمان خاطرا في الوهم لم يشخّصه في الأدب مشخّص. تطلع أشباح الشياطين من قاع الأرض فتزور أصحابها من الشّعراء، وما عنّ لأيّ منهم أن ينزل فيزورها في واديها. فبقي أرضا بكرا حتّى جاء ابن شهيد فاقتحم أسرارها، وراد مجاهلها. فهو كشّافها وأوّل من رسم لنا خريطتها وصوّر المعالم والمشاهد. فإذا نحن معه في رحلته فيها من «واد ذي دوح» إلى «غيضة»، ومن «شجرة عيناء» إلى «قصر عظيم»، ومن «جبل دير حنّة» إلى «مرج دهمان» فإلى «قرارة غنّاء». هي جغرافية المكان بعامرها وغامرها، بنجادها ووهادها، برمالها ونباتها. لا عجب في أرض العجائب هذه، كأرضنا هذه الأرض التي لا كأرضنا. لا هول فيها ولا فزع لا يغطّيها قار ولا تشتعل بها نار، ولا يسطع جوّها برائحة الكبريت. كلّها أنس وخصب كأنّها قطعة من أندلس. تقصر الخيال بالكاتب دونها إن كان، فله عذره. فقد ورد في القرآن وصف الجنّة والنّار ممّا ألهم المعرّي في رسالته والمسعدي في قصّته. ولم يرد فيه من صفة أرض الجنّ شيء. أهي لعبة المماثلة والمقابلة فيوهمنا أنّه يحدّثنا عن أرض غريبة وهو يحدّثنا عن بلاده، يغرّبنا عنها بمقدار ما نغترّ والملامح هي هي. كما فعل الدّرعاجي في «بلاد الطرزنّي» جعلها في المريخ وهي تونس بأهلها. مهما يكن فليس المقصود بالرّحلة المكان وطبيعته، فإنّما ذلك مناظر يتخلّلها السّرد بسرعة ليبلغ غايته. ففي كلّ موضع لقاء، أو منتدى، ومجلس أو محفل، لا حديث فيها إلاّ عن منظوم الكلام ومنثوره. فإذا التنقّل في المكان جولة بين فنون القول من شعر وخطابة ونقد. إلى ما على حدودها ممّا تشبّه بها وليس منها من ألوان السخف والحماقة. فالسّياحة في غياض الجنّة نزهة في رياض الأدب. فذاك مطلوب الكاتب وحقيقة الرحلة.

(يتبع)

من المستدرك على ديوان الرُّصافي البلنسي

د. حسن عبد الكريم الوراكلي
مكّة المكرّمة

من نافلة القول حين يتعلق الأمر بتأريخ أدب مّا وجوبُ الإعداد لعملية التأريخ، بما تستلزمه من نظر في تراجم الأدباء، وآثارهم، بنشر نصوصه موثقة، محققة، مخرجة، معلقة الهوامش والحواشي.

ومنذ بدأ الاهتمام، في العصر الحديث، بكتابة تاريخ شامل للأدب العربي، أدرك العلماء والدارسون ضرورة الوقوف على نصوص هذا الأدب المخطوطة، وصرفت طائفة منهم جهودها لتحقيق ما سلم لنا منها، ووضعه بين أيدي قراء الأدب عامة والمشتغلين بتأريخ الآداب العربية خاصّة.

وقد استوعبت جهود المحققين، على مدى عقود متوالية، نصوصًا نثريّة وشعريّة من مختلف عصور هذه الآداب وأقطارها.

وكان للتّراث الأدبي الأندلسي عامة الحظ الوافي من جهود المحققين من العرب والإسبان وكان للشعر منه خاصة النصيب الأوفر في جهود هؤلاء وأولئك حتى إنّه ليمكننا القول بأن ما تم العثور عليه من دواوينه التي لم تمتدّ إليها يدُ الضياع، وما جُمع منه وصُنعتْ به أخرى لا يكاد يُدانيه سواء ممّا نُشر أو صُنع من دواوين شعراء أقاليم الضاد الأخرى.

وقد شملت عناية المحققين تراث الأندلس الشعري أعصاره وأقطاره سواء فيما وقعوا عليه من دواوين مجموعة أو فيما صنعوه منها، ونمثل للأولى بديوان ابن درّاج (1) بتحقيق الدكتور محمود مكي، وديوان ابن خفاجة (2) بتحقيق الدكتور مصطفى غازي، وديوان ابن زيدون (3) بتحقيق الدكتور علي عبد العظيم، وديوان أبي إسحاق الإلبيري (4) بتحقيق الدكتور إميليو غرسية غومث وديوان الأعمى التطيلي (5) بتحقيق الدكتور إحسان عبّاس، وديوان ابن الأبّار (6) بتحقيق الدكتور عبد السّلام الهرّاس، وديوان ابن فركون (7) بتحقيق الدكتور محمّد بن

(1) صدر عن المكتب الإسلامي بدمشق عام 1389هـ.

(2) صدر عن منشأة المعارف بالإسكندرية عام 1960 .

(3) صدر بالقاهرة عام 1957 عن دار نهضة مصر.

(4) صدر بإسبانيا عام 1941 ثم حققه مرّة ثانية الدكتور محمد رضوان الداية وصدر عن مؤسسة الرسالة بدمشق وبيروت عام 1976.

(5) صدر عن دار الثقافة ببيروت عام 1963.

(6) صدر عن الدار التونسية للنشر. تونس 1985.

(7) صدر عن أكاديميّة المملكة المغربية بالرباط. سنة 1987.

شريفة، وديوان ابن الخطيب (8) بتحقيق الدكتور محمد مفتاح. وديوان ابن خاتمة (9) بتحقيق الدكتورة لميريت مولداو. وديوان القيسي (10) بتحقيق الدكتور جمعة شيخة والدكتور محمّد الهادي الطرابلسي. ونمثل للثانية بديوان ابن عبد ربّه (11) بصنعة الأستاذ محمد بن تاويت، وديوان ابن شهيد (12) بصنعة الدكتور يعقوب زكي، وديوان الرّمادي (13) بصنعة الأستاذ ماهر زهير جرار، وديوان أبي عبد الله بن الحدّاد (14) بصنعة منال منيزل، وديوان المعتمد بن عباد بصنعة الدكتور أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، وديوان ابن عمار (16) بصنعة الدكتور صلاح خالص، وديوان ابن اللبانة الداني (17) بصنعة الدكتور محمد مجيد السعيد، وديوان ابن صارة الشنتريني (18) بصنعة الدكتور مصطفى عوض الكريم، وديوان الرصافي البلنسي (19) بصنعة الدكتور إحسان عباس.

ويعتبر الشاعر الأخير، وهو أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي البلنسي، من مرموقي شعراء الأندلس في القرن السادس الهجري، وقد كان له ديوان معروف بين أيدي الناس على عصره وفيما بعد عصره، ذكر احتفال الناس به واهتمامهم بانتساخه وتدوينه بعضُ مؤلفي المجاميع الشعريّة وكتب التراجم مثل ابن الأبارفي (الحلة السيراء) (20) وابن خميس في (أعلام مالقة) (21).

وغني عن البيان ما تستدعيه صنعة ديوان مّا من بذل جهد كبير في تتبع المصادر وانفاق وقت طويل في استقصاء المظانّ. على أنه بالرغم مما قد يكون لدى الصانع من حرص على ذلك فإنّ الإحاطة بالمادة الشعريّة الموزعة بين عديد من المطبوعات والمخطوطات تظل مطلبًا عسير المنال لأسباب لعل في مقدمتها عدم تيسر الاطلاع على بعض الأصول لندرتها أو ظنّ مالكيها بها.

---

(8) صدر عن دار الثقافة بالدار البيضاء 1989.

(9) صدر عن المعهد المصري بمدريد ثم حقّق مرة ثانية وصدر عن وزارة الثقافة بدمشق.

(10) صدر عن بيت الحكمة بتونس 1988.

(11) صدر عن مكتبة المعارف بالرّباط ثم اشتغل بنشره غير واحد من المهتمّين بالتراث الشعري الأندلسي مثل الدكتور محمّد التّونجي و الدكتور محمّد رضوان الداية و غيرهما.

(12) صدر ضمن سلسلة « تراثنا » بالقاهرة.

(13) صدر عن مؤسسة الرّسالة 1980.

(14) صدر عن مؤسسة الرّسالة عام 1985/1405.

(15) صدر بالقاهرة عام 1951.

(16) صدر ببغداد عام 1958.

(17) صدر بالبصرة 1977.

(18) صدر عام 1958 ثم عُنينا بجمع شعر ابن صارة ودرسه انظر كتابنا ابن صارة الشنتريني ط. مطبعة النور - تطوان 1985/1405.

(19) صدر عن دار الثقافة عام 1989/1409.

(20) انظر الحلة السيراء بتحقيق الدكتور حسين مونس.

(21) انظر أعلام مالقة ص 29.

وقد بذل الأستاذ الدكتور إحسان عباس، كالمألوف منه في أعماله العلمية حول تراث الأندلس الأدبي، من جهده ووقته وعلمه في لمّ شعر الرصافي «من جميع المظان المتيسرة» (22). بعبارته. مما كان ثمرته «تسعًا وخمسين بين مقطوعة وقصيدة» (23) عُني بترتيبها وتحقيقها والتعليق عليها.

وقد وقع إلينا منذ أعوام مصدر لم يتيسّر للأستاذ الدكتور إحسان عبّاس الاطلاع عليه يوم انصرف إلى صنْعَة ديوان الرّصافي. وهو الكتاب المعروف بـ «أعلام مالقة» (24). وقد اختير فيه من شعر الرّصافي أبيات غير قليلة ـ بالقياس إلى ما بأيدينا من شعره ـ لم يشتمل عليها الدّيوان المطبوع. ولقد رأينا في نشرها (25)، بعد النظر فيها تحقيقا وتعليقا ما يسْهِمُ في إدراك الغاية التي كانت نصب عيني صانع الدّيوان: وهي جمع شتات شعر الأندلسيّين الذين لم تصلنا دواوينهم مما «يعين على الدّراسة المنظّمة للشعر الأندلسي» (26). ورأينا من تمام الفائدة أن نشفع هذه المستدركات بملحقين: أحدهما بترجمة الرّصافي من الكتاب نفسه، وثانيهما بنصّ شعري قاله صاحبه في رثاء الرّصافي./

---

(22) انظر مقدمة المحقّق. ديوان الرصافي البلنسي ص 21.

(23) نفسه ص 21.

(24) هو كتاب جُمع فيه من سكن مالقة ودخلها او اجتازعليها وجُمَلٌ من أخبارهم و أدبهم ابتدأ تأليفه الفقيه محمد بن علي الغساني المعروف بابن عسكر وكمّله ولد أخته محمد بن محمد بن خميس.

(25) ضربنا صفحًا عن مقطوعات ثلاث منها ليست على شرطنا .

(26) ديوان الرصافي (مقدمة المحقق) ص 21.

(1)

وله رحمه الله يمدح أبا سعيد السيد (1):

البسيط

1 ـ من عاند الحق لم يعضده برهـــــان ... وللهدى حجة تعلو وسلطــــــانُ (2)
2 ـ ما يُظهرِاللهُ من آياته فعلـــــى ... أتم حالٍ، وصنعُ الله إتقـــــان (3)
3 ـ مَنْ لَمْ يَرَ الشمس لم يحصل لناظـــره ... بين النهـــار وبين الليـــل فرقـــان
4 ـ الحمد لله حمـــد العـــارفين بـــه ... قد نَوَّرَ القلـــب إســــلامٌ وإيمـــان
5 ـ عقلٌ وثابتُ حسن يقضيـــان معًـــا ... للأمر أنّ ســـراج الأمـــر عثمـــانُ (4)
6 ـ السيـــد المتعـــالي كُنْهُ ســـؤدده ... عمـــا تأوَّلُ ألبـــابٌ وأذهـــان
7 ـ مـــن زار حضـــرته العليـــا رأى عجبًا ... الملك فـــي الأرض والإيـــوان كيـــوان
8 ـ كنـــا إلى المـــلأ الأعلين (5) تنسبـــه ... لو ناسب المـــلأ العلـــوي (6) إنســـان
9 ـ كأنمـــا يتعاطـــى فصـــل منطقـــه ... عند التكلـــم لقمـــان (7) وسحبـــان
10 ـ يغضي عن الذنب عفواً وهـــو مُقْتَدِرٌ ... ويتـــرك البطـــش حلمًا وهـــو غضبـــان
11 ـ ففطنـــة من وراء الغـــيب صـــادقة ... منها علـــى فضلـــها فـــي الحكـــم عنوان
12 ـ مزيّة مـــا أراهـــا قبلـــه حصلـــت ... لواحـــد مـــن ملـــوك الأرض مـــذ كانوا
13 ـ أستغفـــر اللـــه إلاّ قصـــة سلفـــت ... قد كـــان تيمـــها يـــومًا سليمـــان (8)
14 ـ ســـار من النقـــع في ظلمـــاء فاحمة ... والشهب فـــي أفـــق المران (9) خرصـــان(10)
15 ـ ومعتـــد ومن الخطـــي (11) فـــي يده ... عصـــا تلقف منـــها الجيـــش ثعبـــان (12)
16 ـ غـــرناطـــة شغفـــت حبًا ومنـــك لها ... بالمـــال وصـــل وبالترحـــال هجـــران
17 ـ مـــولاي مـــاذا عـــليها مُذْ حَلَلْتَ بها ... فـــي أن يعـــاونها نـــاسٌ وبلـــدان
18 ـ إذا تذكـــرت أوطانًا سكنـــت بهـــا ... فـــلا يكـــن منـــك للأضلاع نسيـــان

---

(1) هو عثمان بن عبد المؤمن ولاه والده غرناطة وأعمالها، وكان ذا نباهة ومهابة وصرامة. وكان له تعلق بالآداب ويُولي الشعراء والكتّاب من ضروب الرّعاية والتشجيع ما جعل بلاطه مقصد وجوههم وأعيانهم.
(البيان المغرب 3: 59-62، والمعجب ص 293، والمن بالإمامة ص 193.
(2) انتخب ابن مباركشاه من هذه القصيدة خمسة عشر بيتًا ليس منها إلا بيت واحد توافق في اختياره مع ما ورد من هذه القصيدة في أعلام مالقة. والبيت هو الثالث أعلاه. انظر، ديوان الرصافي البلنسي ص 139.
(3) ينظر إلى قوله تعالى: «صنْعَ اللهِ الذي أتْقَنَ كُلَّ شيء»، النمل: 88.
(4) اسم الممدوح. انظر الهامش رقم (1).
(5) في هامش نسخة الأستاذ محمد بوخبزة: (بالأصل: الأعلى).
(6) الملأ: الجماعة وأشراف القوم وسراتهم. والملأ الأعلى: الملائكة.
(7) يشبه ممدوحه في سداد رأيه وفصاحة لسانه بسيدنا لقمان وبسحبان وهو من قبيلة وائل اشتهر بالبلاغة والفصاحة.
(8) هو نبي الله الذي آتاه الله الحكم والعلم (انظر عن حكمه وعلمه سورة الأنبياء، والنمل في القرآن الكريم).
(9) المُرّان: الرماح والواحدة مُرّانة.
(10) الخرصان: جمع الخُرص وهي الحلقة من الذهب والفضة. وربّما سمي الرمح بذلك.
(11) الخطي: الرماح الخطية.
(12) يفيد من قوله تعالى «فألقى موسى عصاهُ فإذا هي تَلْقَفُ ما يأفِكون» الشعراء: 45.

(2)

وقال يجاوب أبا بكر الكتندي (1) :

(طويل)

1 . سلام أبا بكـــر عليـــك ورحمـــة ... تحية صـــدق مـــن أخ لك مختـــص

2 . لعمري وما أدري بصـــدع زجاجـــة ... عليك وقد تُدْنِي الليـــالي كمـــا تقصي

3 . لقد بان عني، يوم ودعتُ، صـــاحبٌ (2) ... بـــري، أســـاليب الـــوداد من النقص

4 . أقـــول لنفسي حين طارت بك النوى ... أخوكِ قريشي (3) من جناحـــك أو قصي

5 . فباتت علـــى ظهـــرالنـــزوع إليكم ... تطير بًا في الـــوكر أجنحـــة الحـــرص

6 . إلى كم أبا بكـــر تحـــوم بأنفـــس ... ظماء إلى عهد الأجيـــرع (4) أو حمص (5)

7 . كأن لم تَرَ (6) تلك الســـربى وكأنـــها ... عرائـــس تزهـــاها المواشيـــط بالعفص (7)

8 . ولا رنَّقـــت تلك الأراكـــة (8) فوقنـــا ... فلسوت إزار الظـــل في كفـــل الدعـــص

9 . وكـــانت لنا فيـــما هنـــاك مـــآربٌ ... تطيع الهـــوى العـــذري فينا ولا تعصـــي

10 . ليالينا بالـــري والعـــيش صـــالحٌ ... وظلك عنـــها غيـــر منتقـــل الشـــخص

11 . وما ذكرُها لولا شفا (10) من علاقـــة ... تتبعـــها نفـــسي تتبـــع مستقـــصي

12 . وددتُ، أبا بكـــر، لـــو أني عـــالمٌ ... لكـــنْ(11) زنـــدي ليس يقـــدح بالحـــرص

13 . هـــل الغيب يومًا بفاتح لـــي بابـــه ... فأنظـــر منه كيـــف أنـــك في حمـــص

14 . بأزرق ســـلال الحـــام وقـــد بـــدا ... يداعـــبُ فـــي كـــأس تحركَ للـــرقص

15 . ومـــا معصـــم ريـــان دار ســـوارة ... على مثـــل مـــاء الدُّر فـــي بشـــر رخص

16 . بأبهـــج منـــه في العيون إذا بدا ... ولا ســـيمـــا والشـــمس جانحـــة القـــرص

17 . خليـــج كخيط الفجـــر ينجر فوقه ... ذيـــول عشبـــات مزخرفـــة القمـــص*

---

(1) هو أبو بكر محمد بن عبد الرحمن بن أبي العافية الأزدي شهر بالكتندي، كان أديبًا بارعًا وشاعرًا مجيدًا وكانت بينه وبين الرصافي ومقامات أدبية، ومجالس شعرية وارتجالات نبيهة، وترجمته في (المغرب في حلى المغرب) 2/264، والذيل والتكملة، 6:349، وأعلام مالقة ص 29، وزاد المسافر ص 95.
أما الأبيات التي جاوبه عنها الرصافي فهي :

أعندكم يا ساكن الود أنكـــم ... برأي على بعد المسافة من حمـــص
أتقضي الليالي أن تلـــم بنـــزل ... ألفناه ما بين الأراكة والدعـــص
زمانٌ وما حرص المقادير من حرصـــي

(2) في هامش نسخة الأستاذ بوخبزة (الأصل : صاحبٌ)
(3) ريشُ الســـهم إذا ألزقت عليه الريش في ومريش.
(4) الأجيرع: اسم موضع
(5) حمص : إشبيلية
(6) في هامش نسخة الأستاذ بوخبزة (ولعلها : تزر)
(7) العفص : الذي يتخذ منه الحبر.
(8) الأراكة : شجرة من الحمض.
(9) أنلت الشيء وتنلت وانتلت بمعنى. وكساء قلوت: لا ينضم طرفاه على لابسه.
(10) الشفا : البقية.
(11) في الأصل : وللكون.
(12) في الأصل : يمارج ولعل الصحيح ما أثبتنا.
(13) رخص : ناعم.
(x) أعلام مالقة : 24-25.

(3)

وقال في تفاحة (1):

(مخلع البسيط)

1 . تفاحة أهديت إليه ... حمراءُ في لون وجنتيه
2 . همّ بتقبيلها فزارت ... فاه على رغم مقلتيه
3 . بالله يا زهر محجريه ... دَعْني أُسَيلُ آسٍ (1) عارضيه
4 . لم باكرت أقحوان فيه ... يقرع باب المنى عليه
5 . لعله قد أعار يومًا ... نكهتها طيب مرشفيه (2)
6 . فباكرته على حياء ... تصرف أنفاسه إليه*

(4)

وقال من قطعة يصف خطًا في كاغد مقطوع بمقص:

(طويل)

1 . بعينك هل أبصرت من قبل أحرفًا ... كُتِبْن بماء الحسن في طرر الزهر
2 .(سحامة)(1) قرطاس (ثمنتها)(2) كماترى ... ملاعبة المقراض سطراً على سطر
3 . أليس عجيبًا أن يعرض كاتب ... بكافوره القرطاس عن مسكة الحبر؟*

(5)

وقال من قصيدة يصف بها إجازة الخليفة (1) البحر:

(البسيط)

1 . خضتم للمعالي بحر أندلس ... أعنة السابحين الفلك والفرس
2 . واخجلتا البحر أن لَمْ يَحلُ مشربه ... وإن غدا عنبري اللون والنفس*

---

(1) الآس : شجر وهو أيضًا بقيّة الرماد في الموقد
(2) المرشف : موضع الرشف وهو المص.
(*) أعلام مالقة ص 25-26.

(1) كذا في الأصل ولعلها (سماوة). وسماوة كل شيء : شخصه
(2) كذا في الأصل.
(3) المقراض الآلة التي يقطع بها الورق ونحوه.
(*) أعلام مالقة ص 27.

(1) للشاعر قصيدة مشهورة في جواز الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس. أولها :

لو جئتَ نارَ الهدى من جانب الطور ... قبست ما شئت من علم ومن نور

الديوان : 77 وما بعدها
والبيتان أعلاه من قصيدة أخرى في الخليفة نفسه.
(*) أعلام مالقة ص 27

(6)

وقال ينصح شداة الأدب:

(مجزوء الخفيف)

1 . اجعل العلم أولا ‏ ‏ ‏ واجعل الشعر آخرا
2 . فإذا ما فعلت ذا ‏ ‏ ‏ كنت لاشكَّ شاعرا (1) *

(7)

وقال في تلم نظماً ونثراً من مقامة (1):

(المتقارب)

تصير الأنابيب لكنه ‏ ‏ ‏ يطولُ مضاءً طوال الرماح
إذا عُب للنفس من دامس (2) ‏ ‏ ‏ ودب من الطرس فوق الصباح
تجلت له مشكلات الأمور ‏ ‏ ‏ ولان له الصعبُ بعد الجماح*

(8)

وقال في صنوبرة من نحاس يتحدر الماء من جوانبها وسط بستان (1):

(البسيط)

1 . لم أنس ما راقه عيني من صنوبرة ‏ ‏ ‏ لها مع الماء حالٌ غير محلول
2 . تصب فيه لجينها وتنفخه ‏ ‏ ‏ أعطافها مثل أشطار الخلاخيل*

---

(1) لهذين البيتين حكاية لذّما بها، ونصها (وحدثني الفقيه الأديب أبوعمرو قال: حدثنا الفقيه الكاتب أبوعلي كسرى، قال: كنت كثيراً ما أقعد عند الفقيه الأستاذ أبي عبد الله الرصافي رحمه الله على جهة التبرك بأخباره والاقتباس من أنواره، وأنا إذ ذاك في حال الشّبيبة، فسنح خاطري بأبيات شعر فكتبتها في لوح وعرضتها عليه، ولم أذكر له قائلها تعرف الأمر وأخذ القلم من يدي وأزال شيئاً كان في يده. وكتب على البديهة : اجعل العلم... البيتان. قال: فوقعت كلمتُه في أذني فلازمت القراءة فانتفعتُ والحمد لله.) (أعلام مالقة ص 28.)

(*) المصدر نفسه ص 28.

(1) المختار من وصف الرصافي النثري ضمناه كتابنا (المقامة الأندلسية : دراسة ونصوص).

(2) أي الحبر الأسود.

(3) أي بياض الورق.

(*) أعلام مالقة ص 29.

(1) للشاعر أبيات أخرى في وصف الصنوبرة نفسها. انظر، الديوان ص ص 44-120.

(*) أعلام مالقة ص 111.

الملحق I : ترجمة الشاعر

أبو عبد الله فحل الشعراء، ورئيس الأدباء، أصله من (بلنسية) واستوطن (مالقة)، واتخذها دار إقامة إلى أن توفي بها رحمه الله يوم الثلاثاء التاسع عشر لشهر رمضان المعظم سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة. وكان رحمه الله ساكنًا، وقورًا، ذا سمت وعقل. وكان رفّاء يعمل بيده ويقصده رؤساء الكتاب والشعراء يأخذون عنه ويسمعون منه. وحدّثني الفقيه أبوعمرو بن سالم رحمه الله ومن خطه نقلت، قال: حدثني الوزير الحسيب أبو الحسين شاكر بن الفقيه الأديب أبي عبد الله بن الفخار المالقي رحمه الله، قال: «ما رأيت في عمري رجلاً أحسن سمتًا وأطول صمتًا من أبي عبد الله الرصافي، (وكان) من أعقل الناس». وحدّثني صاحبُنا الفقيه أبو عبد الله بن عمّار الكاتب بمحضر الأديب أبي علي بن كسرى، قال: «كان الفقيه أبو عبد الله الرصافي من أعقل الناس، وكان رفّاء فما سمع له أحد من جيرانه كلمة في أحد. وكان بإزائه أبو جعفر البلنسي، وكان رحمه الله متوقد الخاطر، فربما تكلم مع أحد التجار فكانت منه هفوة فيقول له وشتان بينك وبين أبي عبد الله في العقل والصمت» وربما طالبه بأشياء ليجاوبه عليها فما يزيد على الضحك. فلما كان في أحد الأيام جاء ليفتح دكانه فتعمد أن ألقى الغلق من يده فوقعت على رأس أبي عبد الله وهو مقبل على شغله فسال دمه، فما زاد على أن قام ومسح الدم ثم ربط رأسه وعاد إلى شغله. فلما رأى ذلك منه أبو جعفر المذكور ترامى عليه وجعل يقبل يديه، ويقول «والله ما سمعت برجل أصبر ولا أعقل منك، والله لقد تعمدت ذلك» وهو يضحك ويقول «بارك الله فيك وغفر لك». قال أبوعمرو رحمه الله: «لقيت الفقيه أبا عبد الله الرصافي رحمه الله غير مرة. وكان صاحبا لأبي. وكان له موضع يخرج إليه في فضل العصير، فكنتُ أجتاز عليه في أكثر الأيام مع أبي رضي الله عنه فألثم يده فربما قبل رأسي ودعا لي. وكان أبي يسأله الدعاء فيخجل ويقول «أنا والله أحقر من ذلك». وكان من أعقل الناس وأحسنهم خلقًا وخُلقًا».

وكان رحمه الله أديبًا، بليغًا، متصرفًا. وشعره مجموع بأيدي الناس. حدثني به الفقيه الأديب أبوعمرو عن الأديب أبي علي بن كسرى سماعًا من لفظه. وقرأت عليه عن أبي عبد الله ابن غالب الرصافي وعن الأستاذ أبي عبد الله بن الحجاري عن أبي عبد الله بن (غالب) الرصافي...(*)

الملحق II : على قبر الشاعر

(قال أبو عمرو : ووقفت معه - يعني الشريف (1) - ومعنا صاحبنا أبو الحسن ابن حكيم على قبر الفقيه أبي عبد الله الرصافي، فترحمنا عليه، وذكرنا أخباره فارتجل أبو الحسن الشريف هذه الأبيات، وذلك يوم الجمعة الخامس من رمضان المعظم سنة سبع وتسعين وخمسمائة بجبانة مالقة حرسها الله تعالى:)

(*) أعلام مالقة ص 17-18.

(1) هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمود العلوي. كان من أدباء مالقة ذوي الحسب والمعرفة الذين عاصروا الرصافي وصاحبوه. وهو صاحب المقطوعة التالية: (أعلام مالقة ص 167-168.

سقى قبر من أضحى لدينا به الفخر ... وكان لنا منه النباهة والقدرُ
صوائب مزنٍ ينثني النبتُ حوله ... فيبصر فيه النَّورُ قد زفَّ والزهر
ففيك أيا قبرُ الرصانةُ والحجا ... وشى المعالي الغر والنظم والنثر
تبكي الرصافيَّ الذي كان ذكره ... يطيب به في كل آونةٍ نشر
عيونٌ لأحباب أقاموا بقبره ... وما لهم إلا التأسف والذكر
وقد غشيتهم للتذكر روعة ... فألوانهم صفرٌ وأدمعهم حمر
عليك ـ أبا عبد الإله ـ تحية ... مروجة حتى يجمعنا الحشر*

(*) أعلام مالقة ص 168.

ابن قزمان وتراثه الزّجليّ

بقلم الأستاذ : حمّودة لعبيّب

توطئة :

كتب ابن خلدون (732 - 808 / 1332 - 1406) قبل استرداد الإسبان لغرناطة سنة (1492/697) بحوالي مائة سنة متحدّثا عن انتشار الزّجل بالأندلس : «ولمّا شاع فنّ التّوشيح في أهل الأندلس (...) نسجت العامّة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضريّة من غير أن يلتزموا فيه إعرابا، واستحدثوا فنّا سمّوه بالزّجل.» (1). ويضيف أنّ الزّجل كان شائعا بالأندلس ويستشهد بكلام ابن سعيد المغربيّ (610 - 685 / 1214 - 1286) الّذي لاحظ عند زيارته للشّرق أنّ شهرة أزجال ابن قزمان قد تجاوزت حدود الأندلس والمغرب إلى المشرق العربيّ : «قال ابن سعيد : ورأيت أزجاله مرويّة في بغداد أكثر ممّا رأيت بحواضر المغرب.» (2).

ويثير كلام ابن خلدون عدّة قضايا جوهريّة تتعلّق برواج أزجال ابن قزمان بالمغرب والمشرق وطبيعة لغتها وشهرة صاحبها. وسنتعرّض إلى هذه المسائل لعلاقتها المباشرة بموضوع هذا المقال الّذي سنتناول فيه :

1 - الأسباب المحتملة لعزوف الباحثين العرب اليوم عن دراسة الزّجل الأندلسيّ، والعلل الكامنة وراء انتشار أزجال ابن قزمان في الآفاق في عهده وتجاوزها حدود الأندلس إلى بغداد ومصر والشّام واندثارها في الوقت الرّاهن بمقارنة مع الموشّحات الأندلسيّة.

2 - إبراز قيمة ابن قزمان وأزجاله من خلال آراء النّقاد القدامى والمحدثين فيه.

3 - عرض نقديّ لمختلف نشرات المستشرقين لديوانه، وحصر أهمّ مسائل الخلاف بين الباحثين حول أزجال ابن قزمان، وتقييم حصيلة ما أنجز حولها سعيا للتّقدّم بالبحث العلميّ في هذا الموضوع.

4 - أهمّ دواعي الحاجة إلى بحث علميّ عربيّ حول ابن قزمان وديوانه ومبرّرات الدّعوة إلى تعريبه.

5 - اقتراح طريقة عمليّة كفيلة بإنجاز نشرة عربيّة للدّيوان باعتباره «أنفس أثر زجليّ»(3) ودراسة تراث شاعر يعدّه أحد المستشرقين «قطبا من أقطاب الأدب العربيّ.» (4).

1) أسباب عزوف الباحثين العرب اليوم عن دراسة تراث ابن قزمان الزّجليّ :

ممّا يلفت نظر الدّارس للشّعر الشّعبي العربيّ ندرة الدّراسات العربيّة حول الزّجل الأندلسيّ وتراث أهمّ أعلامه، على الرّغم من أنّ الزّجل فنّ قائم بذاته ومستقلّ عن الموشّحات وعن

---

(1) ابن خلدون : «تاريخ العلاّمة ابن خلدون»، المجلّد الأوّل القسم الأوّل، دار الكتاب اللّبناني، بيروت 1956، ص 1114 - 1115.

(2) نفس المرجع، نفس الصّفحة.

(3) سامي أحمد الموصلي : دراسات أندلسيّة، ط 1، بغداد 1970، ص 4.

(4) انظر مقال «الأندلس»، (فصل الحياة العلميّة والأدبيّة بالأندلس) بدائرة معارف الشّعب ومطابع الشّعب 1959، ج 2، ص 204 (عبد العزيز سالم).

القصيدة، ويعادل التوشيح في أهمّيته التاريخيّة (5)، ويتضمّن جميع الأغراض كالمدح والفخر والغزل والخمريات والتأمّلات في الحياة والموت والحبّ وحتّى الكدية. وفي الأزجال تعبير عن روح الكدية يضارع في طرافته ما في مقامات الهمذانيّ والحريري.

وأسباب عزوف الباحثين العرب عن دراسة الزّجل كثيرة نذكر من بينها :

أ – ظنّ بعضهم عن خطإ أنّ الزّجل شعر شعبيّ بالمفهوم التّقليدي لكلمة «شعبيّ»، وما يحفّ بها من إسفاف وابتذال من حيث اللّغة والمواضيع. ولا أدلّ على هذا الفهم الخاطئ من أنّ ابن قزمان «كان في أوّل شأنه مشتغلا بالنّظم المعرب فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يازجه فيها أحد فصار إمام أهل الزّجل المنظوم بكلام عامّة أهل الأندلس. » (6).

ب – وجوب معرفة اللّغة الإسبانيّة لكل من يروم دراسة الزّجل الأندلسيّ :

– لا حتوائه على كلمات وتعابير إسبانيّة ونذكر على سبيل المثال قول ابن قزمان في زجل له :

إنّما أن نتوب آنا نحـــــــال
وبقائي بلا شربة ضـــــلال
بين بين ودعني ممّا يقـــــال
إنّ ترك الخلاعة عندي جنـــون

(الزّجل رقم 90، النّشرة 5، البيت 1، ص 598)

و«بين بين» تعني «الخمرة الخمرة» بالإسبانيّة (vino, vino)

– ولأنّ «الخرجة» – وهي من أبرز أركان الزّجل – كثيرا ما تكون بالرّومانثيّة (الإسبانيّة القديمة). والخرجة، كما هو واضح من التّسمية، وسيلة للخروج من الكلام المعرب إلى العاميّ أو الرّومانثيّ أو من غرض الغزل إلى المديح أو العكس. وقد تكون التّسمية اصطلاحا موسيقيا.(7).

– ولمعرفة ما كتب عن الزّجل باللّغة الإسبانيّة ولتقييم ما جاء في دراسات المستشرقين الذين أشبعوا هذا الموضوع بحثا واجتهادا.

– وللاطّلاع على قصائد بعض الشّعراء الإسبان الذين تأثّروا بالزّجل ونسجوا على منواله. ونذكر على سبيل المثال الشّاعر الإسباني جون رويث (Juan Ruiz) الّذي كان يعرف اللّهجة العاميّة الأندلسيّة وصرّح أنّه نظم بها بعض الأزجال في شكل أغان للرّاقصات المسلمات واليهوديّات. ويحتوي ديوانه على بعض هذه الأزجال(8).

ج – ضرورة معرفة عروض الزّجل وهو عروض فريد يقترب تارة من العروض الخليليّ (موقف المستشرق الإسبانيّ كورينطي) وطورا من عروض الشعر الإسبانيّ (موقف المستشرق الإسبانيّ غرثيا غومث) (9).

---

(5) الموصليّ : دراسات أندلسيّة، سبق ذكره، ص 4.

(6) انظر مثلا : «الأندلس»، سبق ذكره، ص 204.

(7) عبد العزيز الأهوانيّ : الزّجل بالأندلس، القاهرة 1957، ص 44.

(8) Henri Terrasse : Islam d'Espagne. Plon, Paris 1958, p. 185

(9) انظر مقدّمة كورينطي لديوان ابن قزمان، في النّشرة الّتي أعدّها للدّيوان، ص «ب».

د - اللّبس الذي حصل في أذهان بعضهم بين ثلاثة أنواع من الزّجل :

نوع أوّل : وهو شعبيّ خالص يوافق أذواق العامّة، ويستعمل فيه الزّجّالون اللّغة الدّارجة الأندلسيّة والرومانثيّة (الإسبانيّة القديمة). وقد وجد هذا النّوع بالأندلس إلاّ أنّه قد اندثر.

نوع ثان : وهو مصقول لكنّه متكلّف يرغب عنه العامّة لأنّه يخالف ميلهم الطّبيعيّ إلى البساطة، وما يجري على ألسنتهم من أحاديث عفويّة في حياتهم اليوميّة.

نوع ثالث : جمع بين مزايا النّوع الأوّل والثّاني، وعرف كيف يحتفظ بأحسن خائصهما(10). وأبرز من برع فيه هو أبو بكر بن قزمان الأصغر (460 - 554 / 1076 - 1160). وقد أجمع النّقّاد القدامى منهم والمحدثون على نبوغه في ميدان الزّجل إذ بلغ على يده أوجه الفنّيّ.

2 - آراء النّقّاد القدامى والمحدثين في ابن قزمان :

2 - 1 آراء النّقّاد القدامى :

يعتبر ابن خلدون ابن قزمان إمام الزّجالين دون منازع، إذ ملك ناصية هذا الفنّ وأبدع طريقة في صياغة الأزجال امتاز بها عن غيره، وهو يقول عن ابن قزمان في معرض حديثه عن الزّجل : «وأوّل من أبدع هذه الطريقة الزّجليّة أبو بكر بن قزمان (...) وهو إمام الزّجالين على الإطلاق.» (11).

ويدعّم لسان الدّين بن الخطيب رأي ابن خلدون وينسج على منواله في إطراء مواهب ابن قزمان بالإلحاح على صفتي «الإبداع» واستقلال طريقته في صياغة الأزجال ويبلغ به الإعجاب أعلى المراتب فيقول :

«إنّ هذه الطّريقة الزّجليّة بديعة ... وبلغ فيها أبو بكر بن قزمان مبلغا عظيما. فهو آيتها المعجزة وحجّتها البالغة وفارسها المعلم والمبتدئ فيها والمتمّم ...» (12).

2 - 2 آراء النّقّاد المحدثين :

اخترنا موقف باحثين معاصرين أحدهما عربيّ والثّاني إسبانيّ، وما يجمع بينهما هو التّنويه والإعجاب بالأزجال القزمانيّة.

- أمّا الأوّل فهو إحسان عبّاس الذي يرى أنّ أزجال بن قزمان حلقة من حلقات تطوّر الزّجل، وأنّ هذا الأخير قد بلغ به درجة الكمال فهو يقول : «إنّ الزّجل، على يد ابن قزمان، اكتمل صورة وموضوعا.»(13).

- وأمّا النّاقد الثّاني فهو إميليو غارثيا غومث (Emilio García Gomez) صاحب رابع نشريّة علميّة لديوان ابن قزمان فيرى «أنّ الزّجل قد نشأ نشأة حقيقيّة مع ابن قزمان وهو أعلى قمّة من قمم الشّعر في القرون الوسطى.» (14).

---

(10) الوصليّ : «دراسات أندلسيّة» سبق ذكره، ص 39.

(11) ابن خلدون : «تاريخ العلاّمة ابن خلدون»، سبق ذكره، ص 1115.

(12) عن عبد العزيز سالم، مقال : «الأندلس»، سبق ذكره، ص 204. (لم يذكر اسم المصدر).

(13) إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسيّ (عصر الطّوائف والمرابطين)، بيروت - ط 6 - 1981 - ص 80.

(14) انظر مقال : «الأدب العربيّ بإسبانيا» بدائرة المعارف الإسلاميّة (الفرنسيّة)، الطّبعة الجديدة، ج 3، ص 618.

وما تشبيه ابن قزمان في مجال الشّعر الشّعبيّ بالمتنبيّ (15) وبأبي نواس (16) في ميدان الشعر التّقليديّ، إلاّ حجّة أخرى على جودة أزجاله.

3 - عرض تقديّ لمختلف نشرات المستشرقين لديوان ابن قزمان.

لابن قزمان ديوانان لم يصلنا منهما إلاّ واحد وهو «إصابة الأغراض في إصابة الأعراض» جمعه لمدوحه الوشكيّ (أمين سوق قرطبة). ويعتبر هذا الدّيوان «أنفس أثر زجليّ أندلسيّ» (17)، وقد نسخ الدّيوان أوّل مرّة بمدينة صفد بفلسطين في منتصف القرن السّادس الهجري. والنّسخة الوحيدة الأصليّة من الدّيوان موجودة في معهد الدراسات الشّرقيّة للمجمع العلمي السّوفياتي(18).

3 - 1 مختلف نشرات ديوان ابن قزمان :

أنجز المستشرقون خمس نشرات لهذا الدّيوان وهي :

- النّشرة العلميّة الأولى : أنجزها المستشرق جنزبرج (Gunzberg)، ونشرها ببرلين عام 1896 واعتمد فيها على النّسخة الوحيدة للدّيوان المذكورة آنفا(19).

- النّشرة العلميّة الثّانية : قام بها المستشرق التّشيكي نيكل (NYKL) :

A. R. Nykl : El Cancionero de Aben Guzman, Madrid, 1933

وقد احتوى الديوان في هذه النّشرة على 149 زجلا (465 ص)، وتمثّل عمل نيكل في تحقيقها ونشرها وترجمتها ترجمة جزئيّة وكتابتها كلّها في حروف لاتينيّة حتّى يسمح للمتخصّصين في الدّراسات الرّومانيّة بملاحظة البناء العروضيّ لهذه الأزجال وقوافيها(20).

ولئن كان هذا العمل هامّا فإنّه ينبغي لنا أن نشير إلى «أنّ هذه النّشرة مليئة بالأخطاء»(21)، وإلى «ضرورة توخّي الحذر الشّديد عند استخدام هذه النّشرة.»(22).

3 - النّشرة العلميّة الثّالثة : أعدّها المستشرق الفرنسيّ كولان (COLIN) وكانت الغاية من نشره للدّيوان مرّة ثانية هي «تجنّب الأخطاء التي وقع فيها نيكل» (23).

(هيئة التحرير).

(15) وكان أهل الأندلس يقولون : ابن قزمان في الزّجّالين بمنزلة المتنبّي في الشّعراء». انظر مثلا : «الأندلس»، سبق ذكره، ص 204.

(16) إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسيّ، سبق ذكره، ص 255.

(17) E. Levi-Provençal : La civilisation Arabe en Espagne Paris 1961, p 171.

(18) إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسيّ، سبق ذكره، ص 255.

(19) انظر مثلا : «ابن قزمان» في دائرة المعارف الإسلاميّة (المعرّبة)، ج 3، ص ص 262-264، (س. أ. سيبولد - Seybold)

(20) إميليو غارثيا غومث : مع شعراء الأندلس والمتنبّي. (ترجمة الطّاهر أحمد المكّي)، مكتبة وهبة، القاهرة 1974، ص 217

(21) إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسيّ، سبق ذكره، 255.

(22) E. Levi-Provençal: La civilisation arabe en Espagne, op. cit. p. 171.

(23)إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسي سبق ذكره، ص 255.

4 - النّشرة العلميّة الرّابعة : وهي نشرة إميليو غارثيا غومث :

Emilio Garcia Gomez : Todo Ben Quzman, 3 tomes. Ed. Gredos, 1972

وتضمّن الدّيوان في هذه الطّبعة 193 زجلا (1511 ص). ولئن كان عمل غومث أفضل بكثير من أعمال سابقيه من المستشرقين، فإنّه اتّسم بعيب علميّ كبير إذ بنى تحقيقه للنّصّ وترجمته إلى الإسبانيّة ونشره له بحروف لاتينيّة على فكرة استبدّت به وهي أنّ أوزان الأزجال القزمانيّة تخضع للعروض الإسبانيّ واعتمادا على هذه الفكرة ألّف عمله الضّخم (3 مجلّدات)، وعلى ضوئها أعاد تحقيق الديوان وشكل ألفاظه «مع أنّ التّشابه العارض بين أوزان الزّجل لا يؤيّد هذه النّظريّة.» (24).

5 - النّشرة العلميّة الخامسة : أنجزها المستشرق الإسبانيّ ف. كورينطي : (F. Corriente) :

ف. كورينطي : ديوان ابن قزمان، المعهد الإسبانيّ العربيّ للثّقافة، مدريد 1980، واشتمل الدّيوان في هذه الطّبعة 149 زجلا (1008 ص) : وهي أفضل النّشرات لأسباب مختلفة نذكر من بينها تقديمه الجيّد للدّيوان وإبرازه للقضايا الجوهريّة فيه واتخاذه لموقف شخصيّ منها عن دراية ودون مواربة، خصوصا اعتباره أنّ لغة الأزجال هي لهجة أندلسيّة لها قواعد خاصّة وأنّ عروض الأزجال عربيّة الأصل، وتحريره للأزجال بحروف عربيّة وشكلها وشرح الكثير من الكلمات الغامضة فيها وإبراز الكلمات الإسبانيّة في الأزجال.

3 - 2 - تقييم أعمال المستشرقين الذين نشروا ديوان ابن قزمان:

كانت دوافع المستشرقين وغاياتهم من هذه النّشرات متباينة. وأفضت نتائج دراساتهم إلى التّناقض السّافر أحيانا. ويمكن القول : إنّ أبرز مواضيع الاختلاف بينهم تتعلّق بأصل الأزجال ولغتها وعروضها.

- أمّا عن أصل الأزجال فهناك عموما اتّجاهان مختلفان :

اتّجاه يرجع الأزجال إلى أصول عربيّة ويبرز دورها في التّأثير في الشّعر الغنائيّ الأوروبيّ في القرون الوسطى.

اتّجاه يعتبر أنّ الأزجال الأندلسيّة هي تقليد لأنموذج غنائيّ سابق في اللّغات «الرّومانثيّة» بإسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا.

- وأمّا عن لغة الأزجال فهناك أيضا اختلاف بين تيّارين رئيسيين : يرى أحدهما أنّها لهجة من اللّهجات الأندلسيّة (25) والآخر أنّها اللّغة العربيّة الفصحى مشوبة بلحن كثير.(26)

- وأمّا عن أوزان الأزجال فهناك من يرى أنّها عربيّة الأصل مع اختلاف جوهريّ : وهو أنّها لا تقوم على تناوب المقاطع القصيرة والطّويلة، وإنّما على تناوب المقاطع المنبورة وغير المنبورة. ذلك أنّ اللّهجة الأندلسيّة قد استبدلت المدّ بالنّبر(27). وتجدر الإشارة إلى أنّ تحديد

---

24) إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسي سبق ذكره. ص 255.

(25) انظر مقدّمة كورينطي ... سبق ذكره، ص «ب»

(26) انظر مقال : إميليو غارثيا غومث حول الأزجال (بالإسبانيّة) بمجلّة الأندلس 1961/2 رقم XXVI ص ص 253 - 321.

(27) انظر مقدّمة كورينطي ... سبق ذكره، ص «ب»

موقع النّبرة (Accent) أساسيّ في اللّغة الإسبانيّة المكتوبة والمنطوقة على حدّ سواء. فإذا سقطت النّبرة أو غُيّر موقعها التبس المعنى أحيانا على القارئ أو السّامع.

ويبدو أنّ عروض الأزجال وموسيقاها ولغتها من أهمّ العقبات في وجه الباحثين إلاّ أنّ اللّهجتين العاميّة والرّومانثيّة لم تمنعا الأزجال من الانتشار في الشّرق. فالأزجال تغنّى وتحفظ أحيانا دون فهم لكلّ ألفاظها ومعانيها بالاعتماد على التّكرار والإيقاع فحسب، وما استظهار النّاس اليوم في الحفلات برصيد مدهش من الأغاني الشّرقيّة والغربيّة بلهجات ولغات عديدة إلاّ حجّة على ما ذكرنا، ولا يحتاج الأمر إلى أمثلة كثيرة إذ هو شائع في حياتنا اليوميّة.

ويرى المستشرق ريبيرا (Ribera) أنّ «المفتاح السّري» الّذي يشرح تركيبة مختلف الأنظمة الشّعريّة للعالم الثّقافي في القرون الوسطى يكمن في أزجال ابن قزمان (28). وقد يكون رأي ريبيرا الآنف الذكر هو السّبب الرّئيسي لتهافت المستشرقين على دراسة الديوان. ويبدو أنّه ليس هناك مفتاح واحد سريّ ضائع لفهم الديوان وإنّما مجموعة من المفاتيح، إذ ما تزال الكثير من المعضلات قائمة في الديوان.

4 - دواعي الحاجة إلى بحث علميّ عربيّ حول ابن قزمان وتراثه الزّجليّ :

لئن أنجز المستشرقون خمس نشرات علميّة لديوان ابن قزمان، وبذلوا جهودا محمودة في التّحقيق وتذليل بعض الصّعوبات اللّغويّة وترجمته إلى الإسبانيّة، فقد تضمّنت بعض النّقائص واتّسمت ببعض العيوب. وهذا ما دفع بعضهم إلى التّعبير عن ضرورة القيام بدراسة الدّيوان دراسة علميّة عربيّة. وقد عبّر عن هذه الرّغبة إحسان عبّاس في نقده للنّشرة ما قبل الأخيرة لديوان ابن قزمان (نشرة غارثيا غومث 1972) فنراه يختم نقده بقوله : «وأعتقد أنّنا مازلنا بحاجة شديدة في الشّرق العربيّ إلى أن نرى قراءة صحيحة لديوان ابن قزمان»(29).

وقد سبق سيبولد أن أشار إلى نفس الموضوع منذ زمن بعيد مبرزا وجوب القيام بدراسة علميّة لأزجال ابن قزمان ومؤكّدا أنّ «الحاجة ماسّة إلى نشر طبعة علميّة لديوانه مع ترجمته والتّعليق عليه ... كذلك نحن في حاجة إلى جمع ونشر تراجم بني قزمان الّتي وردت في مصنّفات ابن بسّام وابن الأبّار وابن الخطيب المخطوطة المبعثرة هنا وهناك». (30)

ولا ريب أنّنا نجد في مختلف النّشرات دراسة لبعض المسائل الّتي أشار إليها سيبولد، إلاّ أنّها تفتقر إلى التّركيز والدقّة. وتضاف إليها قضايا أخرى كوجوب تعريب هذا الدّيوان تعريبا يجمع بين المحافظة على ما هو بالعربيّة الفصحى في النّصّ الأصليّ وترجمة ما هو بالعاميّة أو بالأعجميّة الأندلسيّة وخصوصا بالرّومانثيّة (الإسبانيّة القديمة) إلى العربيّة، وتوضيح ما التبس فيها من ألفاظ ومعان فضلا عن دراسة الأزجال دراسة معمّقة من حيث المحتوى واللّغة والأسلوب.

---

(28) كراتشكوفسكي : الشّعر العربيّ في الأندلس، ترجمة د. محمود منير مرسي، القاهرة 1971، ص 72.

(29) إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسي سبق ذكره، ص 255.

(30) انظر مقال : «ابن قزمان» في دائرة المعارف الإسلاميّة (المعرّبة)، ج 3، ص 262 - 264، (س. أ. سيبولد - Seybold)

بيد أنّنا نشير إلى أنّ المقارنة بين الأزجال في مختلف النّشرات وتعريبها، ثمّ دراستها تتطلّب توفّر كلّ المصادر المذكورة والمعاجم المتعلّقة بالعاميّة الأندلسيّة والرّومانثيّة وقدرا كبيرا من الدّربة، إذ أنّها شعر شعبيّ مشحون بالألفاظ والتّعابير العاميّة المأخوذة من اللّهجة الأندلسيّة القرطبيّة فضلا عن بعض الألفاظ البربريّة (31). وهو عمل ينوء بحمله باحث واحد.

5 - مقترحات عمليّة لإنجاز نشرة عربيّة لديوان ابن قزمان :

أشرنا في مستهلّ المقال إلى ندرة الدّراسات العربيّة حول الأزجال، وذكرنا بعض الأسباب المحتملة لعزوف الدّارسين عن البحث في الموضوع. وكان ديوان ابن قزمان أنموذجا للعقبات العديدة الّتي تقف في وجه الباحثين والّتي لا يتسنّى لدارس واحد أن يذلّلها. ونقترح أن تشرف مؤسّسة أكاديميّة أو هيئة علميّة مختصّة مشهود لها بجدّيّة الباحثين فيها وكفاءتهم كبيت الحكمة أو جمعيّة الدّراسات الأندلسيّة بتونس على القيام بهذا العمل الضّخم الّذي ينبغي أن تتضافر جهود مجموعة من الباحثين لإنجازه. ولا أقلّ - في رأينا - من خمسة مجالات في الدّيوان تتطلّب الدّراسة والتّمحيص :

1 - المجال الألسنيّ (العربيّة والإسبانيّة) : لاحتواء الدّيوان على عدّة سجلاّت لغويّة : العاميّة الأندلسيّة والعربيّة الفصحى والرّومنثيّة (الإسبانيّة القديمة).

2 - مجال الأدب المقارن : لتبيّن مدى التّأثّر والتّأثير بين الأزجال الأندلسيّة والشّعر الغنائيّ الأوروبيّ، خصوصا عند التّروبادور من حيث الشّكل والمضمون ولإبراز التّداخل بين العروض الإسبانيّ والعربيّ في الدّيوان، ولهذا السّبب نعتبر أنّ دراسة ديوان ابن قزمان هي من صميم الأدب المقارن إذ لا تكاد تخلو دراسة واحدة من دراسات المستشرقين «من ذكر أوجه المقارنة بين الأزجال الأندلسيّة وما يقابلها في آداب إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا باللّغة الرّومانثيّة.» (32).

3 - مجال الموسيقى والأغاني الشّعبيّة : لأنّ الأزجال «قد نظمت ليتغنّى بها الشّعراء الجوّالون في الأسواق بصوت جهير وسط جمهور يتجمّع أفراده حول المنشد، فيردّد «المركز» (33) جماعة عقب كلّ فقرة يلقيها. وتصحب كلّ ذلك آلات الموسيقى كالعود والنّاي والطّنبور والدّفّ ... وربّما تخلّلها الرّقص»(34).

وإنّ تسمية ديوان ابن قزمان بالإسبانيّة وفي مختلف النّشرات بـ « Cancionero » (ديوان = أغان) هي في رأينا أدقّ تعبيرا وأكثر إفصاحا عن محتوى الأزجال من مجرّد كلمة ديوان. وقد أشار ابن قزمان نفسه في مواطن عديدة من الدّيوان إلى أنّه ينظم أزجاله لتغنّى :

قد تمّت الزّجيّل وهو من قلبي مقطــــــــــــوع
وجاء من سحر بابل ومن الدرّ مجمــــــــــوع
تسمع النّاس يقولوا أنّ ذا، ياخ مطبــــــــــوع
وتقول ال .... (و) قت يغنّيه

---

(31) انظر مقال : «ابن قزمان» في دائرة المعارف الإسلاميّة (بالفرنسيّة)، الطّبعة الجديدة، ج 3، ص ص 874 - 876.

(32) انظر مقدّمة كورينطي لديوان ابن قزمان، في النّشرة الّتي أعدّها له ص «ب».

(33) «المركز» : هو أوّل جزء من الزّجل ويتكوّن عادة من بيتين.

(الزّجل رقم 10، النّشرة 5، البيت 10، ص 18)

4 – مجال التّعريب : تعريب الدّيوان من الإسبانيّة (بين 149 و 194 زجلا حسب النّشرات).

5 – باحث يتقن اللّسانين، يتولّى التّنسيق بين الباحثين السّالف ذكرهم ويتوّج نتائج أعمالهم ببحث علميّ يتناول حياة ابن قزمان من خلال ديوانه – بعد تعريبه وضبط شكله وأوزانه – ودراسة مضامين أزجاله وخصائصها الفنيّة دراسة تحليليّة مقارنة، بالاعتماد على مختلف نشرات المستشرقين لديوانه وذلك من حيث اللّغة والعروض والموسيقى، وتذييله بمعجم للألفاظ العاميّة الأندلسيّة والرّومانثيّة وضبط فهارسه.

ونأمل أن تؤخذ هذه المقترحات أو بعضها بعين الاعتبار، إذ من المؤسف حقّا أن نرى تهافت المستشرقين على نشر ديوان ابن قزمان (خمس نشرات) وخلوّ المكتبة العربيّة من «أنفس ديوان زجليّ على الإطلاق.» (35) وانعدام دراسة علميّة حول شاعر أجمع النّقاد القدامى والمحدثون، العرب منهم والأجانب على نبوغه في فنّ الزّجل واعتبار بعضهم لديوانه «جسرا بين الشّرق والغرب.» (36).

ولا شكّ أنّ بحثا علميّا حول ابن قزمان وتراثه الزّجليّ بالطّريقة الّتي اقترحناها وبإشراف هيئة علميّة رسميّة وعكوف لجنة من المختصّين على إنجازه، لكفيل بنشر أوّل نسخة عربيّة للدّيوان ودراسته والتّعريف بصاحبه، وتوضيح بعض المسائل اللّغويّة والعروضيّة والموسيقيّة والأدبيّة الّتي من شأنها إذا ما درست أن تخرج هذا الأثر النّفيس إلى النّور، وأن تكشف عن نوع العلاقة بين آداب المسلمين والنّصارى في الأندلس.

(34) الطّاهر أحمد المكّي: دراسات أندلسيّة، دار المعارف، القاهرة 1980، ص 213.

(35) إحسان عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسيّ (عصر الطّوائف والمرابطين) بيروت ـ ط ٦ ـ 1981 ـ ص 255.

(36) انظر مقدّمة كورينطي، سبق ذكره، ص أ.

هل كان لأهل الأندلس والمسلمين في غرب إفريقيا دور في اكتشاف العالم الجديد ؟

عبد الواحد ذنون طه

قسم التاريخ - كليّة التربية

جامعة الموصل - العراق

يرى أحد المؤرخين العرب المحدثين(1)، أن مسألة الوصول إلى شواطئ العالم الجديد في حد ذاتها ليست بذي بال، ولا تدل على تقدم ولا توصف بأنها كشف. إنّما العبرة في عمل كريستوف كولومبوس أنّه قام على نظريّة علميّة وأثبت صحّتها: وهي أن المتجه من شواطئ أوربا غربا يصل إلى آسيا، لأن الأرض كرويّة. وهذه النظريّة عربيّة، وعليها وعلى أهميتها سيتم التركيز في بحثنا هذا، بالإضافة إلى سعة المعرفة الملاحية للمسلمين بشكل عام، سواء أكان ذلك في المحيط الهندي، والبحرين الأحمر والمتوسط، أم في المحيط الأطلسي ومعرفة شواطئه التي تطل على شبه جزيرة إيبيريا وقارة إفريقيا.

كذلك ستتم الإشارة إلى دور المسلمين في نقل هذه العلوم والمعارف الملاحيّة إلى الأوربيين، والطرق التي تم بموجبها هذا الانتقال، وأثر ذلك في وصول هؤلاء إلى العالم الجديد. وسيلقي البحث أيضا الأضواء على اهتمامات المسلمين، سواء أكانوا في الأندلس أم في إفريقيا بالمحيط الأطلسي، ومغامراتهم فيه، ورغبتهم الصادقة في اكتشاف المجهول الذي يكمن وراءه. الأمر الذي جعلهم في طليعة الأمم التي ساهمت في هذا الإنجاز وهيّأت له(2). فكان لهم فخر الريادة المباشرة عن طريق مغامرة أحد ملوك امبراطوريّة مالي الإسلاميّة، الذي يحتمل وصوله إلى جزر البحر الكاريبي، وكذلك قبيلة بني برزال التي وصلت فعلا، كما يرى أحد الباحثين، إلى البرازيل. أمّا دورهم غير المباشر فيأتي عن طريق تطبيق نظريتهم عن كرويّة الأرض، ومعارفهم الملاحية التي طوّرت على يد الأوربيين، فساعد ذلك على الوصول إلى العالم الجديد.

ومن أجل أن يكون جوابنا على السؤال مدار البحث سليما، يجب أن نرجع في التاريخ إلى ما قبل اكتشاف العالم الجديد، وإلى دور العرب في المعرفة الملاحيّة عامّة منذ ظهورهم على مسرح التاريخ قوّة سياسيّة وعسكريّة معروفة، وحينئذ يمكن تبيّن المكانة العظيمة لهذه المعرفة

---

(1) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، (ط. 2، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1986)، ص 276.

(2) هناك دعاوي كثيرة من قبل العديد من الأمم بشأن الوصول إلى أمريكا قبل كولومبوس، حيث يرى كلّ من اليابانيين، وسكّان الملايو، والفينيقيين، والرومان، والترك، والهنود، والباسكيين، وسكان ويلز، والإيرلنديين، والفرنسيين، والألمان، والهولنديين، والبرتغاليين، والإسكندنافيين، أنهم أول من وصل إلى العالم الجديد. للتفصيلات ووجهات نظر أهم هذه المجموعات، ينظر : أحمد بدران، وفاضل كرومي، فاتح العالم الجديد، (لبنان، 1949) ص 6-21.

ودورها في تمهيد الطريق للوصول إلى النتائج الباهرة التي حقّقها كولومبوس. فبعد حركة الفتوحات الإسلاميّة أصبحت سواحل بلاد الشّام والخليج العربيّ ميدانا لتحركات السفن الإسلاميّة، تمخر عباب البحر المتوسّط والمحيط الهندي. ولم يكتفوا بالنّسبة إلى البحر الأوّل بالسيطرة على جزره الرّئيسيّة، مثل الباليار وصقلية، ومالطة، وكريت، وقبرص، بل سيطر العرب على سواحله وقواعده، مثل بجانة، وطرطوشه، وتونس، وطرابلس، والإسكندريّة وغيرها. ولم يكن لأوروبا سلطان على هذا البحر خلال القرن 10/4. فقد كان بحراً عربيا «وكان لابدّ لمن يريد أن يقضي لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ودّ العرب كما فعلت نابولي وغيتة وأمالفي...»(3).

أما في المحيط الهندي، فقد وُجد خطٌ بحريٌ شبه منتظم يبدأ من سيراف على الخليج العربي وينتهي بكانتون في الصين، وقد أشرف عليه ملاحو سيراف. ويشير المستشرق الإسباني خوان بيرنيط(4)، إلى تأييد المصادر الصينيّة لذلك، كما أكّد أنّ البحّارة العرب كانوا يرثون التجارب الملاحيّة عن آبائهم، حيث وصلتنا بعض هذه التجارب عن طريق كتب العجائب التي تعد النواة الأولى لكتب المسالك البحريّة. ويرجع أوّل كتاب من هذا النوع إلى سيراف في القرن 10/4 يضاف إلى ذلك أنّ ربابنة المحيط الهنديّ كانوا يعرفون الخريطة البحريّة. وهذا ثابت في كلام الجغرافيّ العربيّ محمد بن أحمد المقدسي (ت. 387 هـ / 997 م)(5)، الذي يشير في معرض اتصالاته مع الربابنة والبحارة، واستفساراته عن عالم البحر وحدوده قائلاً : «ورأيت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعوّلون عليها ويعملون بما فيها...». وقد أدخل خلفاء ربابنة القرن 10/4 تحسينات متعددة على هذه الدفاتر التي أشار إليها المقدسيّ، ونذكر على وجه الخصوص من بينهم ملاحاً من أصل إسبانيّ أو مغربيّ، هو عبد العزيز بن أحمد المغربيّ، الذي أشار إليه ابن ماجد(6). حتى إذا كانت سنة 580 هـ / 1184 م استطاع إسماعيل بن حسن بن سهل بن أبان، أن يقوم بدراسات في هذا الصدد، فكتب ورسم الرهمانج أو الرهمانج (الرهماني) التي استخدمها أحمد بن ماجد في كتابه : **الفوائد في أصول علم البحر والقواعد**(7). والرهمانج أو الرهماني هوالاسم الذي يُطلق على كتب أو دفاتر الإرشادات الملاحيّة والخرائط والمسالك البحريّة(8).

---

(3) آدم متز، **الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام**، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، (ط. 4، بيروت، 1967)، 2/431-432.

(4) هل هناك أصل عربيّ إسبانيّ لفنّ الخرائط البحريّة ؟ **صحيفة المعهد المصريّ للدراسات الإسلاميّة**، المجلد الأوّل، (مدريد، 1953)، ص 78.

(5) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. (ليدن - بريل 1906) أعادت طبعه بالأفسات مكتبة المثنى ببغداد، ص 10.

(6) ينظر : شهاب الدين أحمد بن ماجد، **كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد**، تحقيق: إبراهيم خوري وعزة حسن، (دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، 1971)، ج 1، ق 2، ص 15.

(7) **المصدر نفسه**، ص 161، وينظر : بيرنيط، **المرجع السابق**، ص 80-81.

(8) ينظر : حسن صالح شهاب، **علوم العرب البحريّة من ابن ماجد إلى القطامي**. (الكويت، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، 1984)، ص 9.

وهكذا يبدو أن معلومات الجغرافيين العرب كانت دقيقة على وجه العموم فيما يتصل بالبحرين المتوسط والأحمر والمحيط الهنديّ، ولكنهم كانوا يتصوّرون الكرة الأرضيّة محاطة بكلّ جوانبها ببحر عظيم يطلقون عليه اسم «البحر المحيط». ويندرج تحت هذه التسميّة على وجه التقريب كلّ من المحيط الهادي والبحر الشماليّ والمحيط الأطلسي(9). والأهمّ من هذا أنّهم كانوا مقتنعين تمامًا بكرويّة الأرض، في الوقت الذي سيطرت فيه على الفكر الأوروبي جهالة العصور الوسطى، حيث عدّ القديس اوغسطين St. Augustin (ت سنة 43 م.) هذه المسألة على أنها من المسائل التي لا يمكن التّسليم بها. يقول أحمد بن عمر بن رستة(10)، وكان حيًا سنة 290 هـ / 902 م) : «إن الله عزّ وجلّ وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة... والأرض مستديرة أيضًا كالكرة مصمتة في جوف الفلك». أما أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبه(11)، (توفي نحو سنة 300 هـ / 912 م)، فيشير إلى ذلك قائلا : «إن الأرض مدوّرة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة». ويشير المسعودي(12)، (ت 346 هـ / 957 م) إلى أنّ الحكماء ذكروا أن الأرض مستديرة ومركزها في وسط الفلك، والهواء محيط بها من كلّ الجهات. ثم يتدرّج في إضافة معلومة أخرى على جانب كبير من الأهميّة، وهي : «... أن الشمس إذا غابت في أقصى الصين كان طلوعها على الجزائر العامرة (الخالدات) التي في بحر أوقيانوس الغربي، وإذا غابت في هذه الجزائر كان طلوعها في أقصى الصين»(13).

ونقل أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري(14)، (ت 487 هـ / 1094 م) هذه الفكرة تمامًا في كتابه المسالك والممالك قائلاً : «وأقيانس البحر المحيط لا يُدرى ما وراءه غربا إلى أقصى عمران الصين شرقا، والشمس إذا غابت في أقصى الصين طلعت في الجزائر (الخالدات) وبالهند». ويقول عن الأرض ومحيطها أيضا أنّها : «كُوَر كورة الأرض المحيطة بالبرّ والبحر، فقطرها على هذا 6424 1/5 ميلا بتقريب». وهو تقدير صحيح لقطر الأرض. وهذه العبارة، مع العبارة السابقة عن «أقيانس» تدل على أن فكرة خروج السفن من غربي أوربا لتصل إلى شرق الصين كانت معلومة تمامًا عند البكري(15). كما أكّد علي بن سعيد المغربي(16) (ت 685 هـ / 1286 م) أيضا على كرويّة الأرض في الجملة الأولى من كتابه عن الجغرافية،

---

(9) من مقدّمة إسماعيل العربي لكتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي، (بيروت، 1970)، ص 57.
(10) الأعلاق النّفيسة، نشر دي غوية (ليدن، 1891)، ص 8.
(11) المسالك والممالك، نشر دي غوية (ليدن، 1889)، ص 4.
(12) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، (ط. 4، القاهرة، مطبعة السعادة، 1964: 86/1.
(13) المصدر نفسه: 86/1.
(14) مقدمة كتاب المسالك والممالك (المخطوط المحفوظ في مكتبة نور عثمانية رقم 34-3) عن النسخة المصورة في دار الكتب بالقاهرة. نقلاً عن : مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص 134.
(15) ينظر: مؤنس، المرجع السابق، ص 134-135.
(16) كتاب الجغرافيا ، ص 79.

حيث ابتدأ كلامه بالقول : «الأرض كرويّة يحيط بها الماء....».

وتتركز هذه المعلومات وتتأكد في كتابات الجغرافيين المتأخرين، فنلاحظ أنّ محمد بن عبد الله الحميري(17) (ت. نحو 710 هـ / 1310 م.) يشير إلى هذه الفكرة ومدى اقتناع أهل الأندلس بها، بل يجعل أمر الخروج باتجاه الغرب في المحيط الأطلسي، ومن ثمّ الوصول إلى الشرق، لاسيما بلاد الهند أمراً بديهياً معروفاً لدى عامة أهل الأندلس، خاصّة أهل جزيرة قادس Cadis الذين كان هذا الأمر، حسب قوله، «مستفيض عندهم معروف جار على ألسنتهم، لم يزل يأخذه آخرهم عن أولهم». وهذه الفكرة أي خروج السفن من غربيّ أوربا لتصل إلى الصين والهند في الشرق هي التي جعلت من كريستوف كولومبوس ما هو في تاريخ البشر(18).

ومع هذا، فعندما يتطرق صامويل ألبون موريسون(19)، الذي كتب عن حياة كريستوف كولومبوس، وأرّخ رحلته، إلى هذه الناحية، يحاول تجاهلها تماماً بالقول : «... ولسنا نعرف كيف توصل كولومبوس إلى فكرة الإبحار غرباً للوصول إلى الشرق! وكل ما نعرفه أن الفكرة أصبحت حقيقة واقعة لديه حالما التقطها ...». إن استعمال موريسون لكلمة «التقطها» يوضح كل أبعاد القضيّة، فهو نفسه يُشير إلى اطلاع كولومبوس على مؤلفات الجغرافي المسلم أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني (توفي في حدود 247 هـ / 861 م)، وقد قرأ فيها القياس الذي أورده الفرغاني عن تقسيم الكرة الأرضية إلى درجات ومقدار ما تساويه كل درجة بالأميال البحريّة(20).

وجاءت هذه المعلومات في رسالة الفرغاني الشهيرة في الفلك، وهي كتاب **الحركات السماويّة وجوامع علم النجوم**، الذي ترجم مرتين إلى اللغة اللاتينيّة في القرن 12/6، كما ترجم في القرن 13/7 إلى لغات أوربيّة أخرى(21). وكان الفرغاني يُعرف في أوربا بـ الفرغانوس Alfraganus نظراً إلى انتشار تراجم كتبه(22). وهو من أوائل الجغرافيين المسلمين، الذي ساق بعض البراهين المتداولة في أيامنا هذه لإثبات كرويّة الأرض، كاختلاف مواعيد طلوع نجم معين، أو اختلاف الكسوف باختلاف الأماكن(23).

يضاف إلى ذلك أنّ كولومبوس كان يمتلك نسخة من كتاب حدود العالم Imago Mùndi ، الذي صنفه بطرس الآيي Petrus de Aliaco أسقف كمبري Cambrai سنة

---

(17) صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر: ليفي بروفنصال، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1937)، ص 148.

(18) ينظر : مؤنس، المرجع السابق، ص 134.

(19) كريستوف كولومبوس ، ترجمة: فوزي قبلاوي، مراجعة أحمد زكي العرابي، (بيروت)، 1959، ص 18.

(20) المرجع نفسه، ص 25-26.

(21) كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص 100.

(22) المرجع نفسه، ص 29، 31.

(23) المرجع نفسه، ص 53.

1410/813، وتم طبعه سنة 885-893 / 1480-1487. والكتاب يتضمن مقتطفات من الترجمات اللاتينيّة لبعض العلماء المسلمين، ومنهم الفرغاني، وتظهر نظريّة الأرين Arin أو قبّة الأرض العربيّة(24)، بحذافيرها في المتن والخارطة على السواء. وقد حُفظت لنا تعليقات كولومبوس الشخصيّة على النسخة التي كان يمتلكها من هذا الكتاب. ومن هنا يتّضح، كما يرى كراتشكوفسكي(25)، وأنّ نظريّة الأرين هي المنطلق الأساسي لنظريّة الشكل الكمثري للأرض عند كولومبوس، ومؤداها أن في نصف الكرة الغربي وفي مواجهة (قبة الأرين) مركزا آخر للأرض على موضع أكثر ارتفاعا من رصيفه بالجهة الشرقيّة. وهكذا فمهما بدا الأمر غريبًا اليوم، فإن النظريّة الجغرافيّة العربيّة كان لها دور في كشف العالم الجديد».

ويتبيّن من كل هذا أن اطلاع كولومبوس على مؤلفات الفرغاني، ووجوده منذ سنة 881 / 1476 في مدينة لشبونة(26) Lisbone (أشبونة) التي شهدت قبل عدة قرون مغامرة الفتية العرب، المغرّرين الذين سنتحدث عن رحلتهم لاحقًا بالتفصيل، كذلك ارتياده البيئة ذاتها التي عاش فيها أبو عبيد البكري وكتب مؤلفاته بين إشبيلية Sevilla، وولبة Huelva ، قد سهل له أمر الحصول على هذه المؤلفات، فضلاً عن الخرائط والمصنفات الجغرافيّة الأخرى التي اطلع عليها قبل القيام برحلته المشهورة(27). ومن الجدير بالذكر أن مدينة ولبة لا تبعد كثيرا عن الرابطة La Rabita التي فيها دير الفرنسسكان الذي لجأ كولومبوس إلى رهبانه لييسروا له مقابلة الملكة إيزابيلا(28). كذلك لا تبعد قادس - التي أشار الحميري إلى اقتناع أهلها بفكرة الوصول إلى الهند المتوجة غربا عبر المحيط الأطلسي - كثيرا عن هذا المكان. وأخيرا فليس من قبيل المصادفة أن يكون كولومبوس على اتصال مع أحد اليهود المتنصرين، الذي كان يتقن اللغة العربية، وأن يصطحبه معه في رحلته إلى العالم الجديد(29). ولاشك أنه استفاد منه قبل الرحلة في قراءة الكثير من المؤلفات والخرائط العربيّة التي ساعدت على نجاح الرحلة.

---

(24) كانت الأطوال عند الجغرافيين المسلمين تقاس ابتداء من خطّ منتصف النهار عند الأرين أو قبة الأرض، التي تقع في مكان ما في الشرق على خط الاستواء في النقطة التي تتلاشى فيها العروض، ويمكن تحديد النقاط الرئيسيّة لأيّ مكان في خطّ زوال الارين. لمزيد من المعلومات عن هذه النظرية، ينظر : المرجع نفسه، ص 83-80.

(25) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 84.

(26) ينظر : موريسون، المرجع السابق، ص 16.

(27) يقارن : Grand Larousse encyclopédique, (Paris, Librarie Larousse, 1960, Vol.: III, p. 266.

وينظر أيضا: سعيد عبد الفتاح عاشور ورفاقه، تاريخ الحضارة الإسلامية العربيّة، (ط 2. الكويت، دار السلاسل، 1986)، ص. 80-81.

(28) موريسون، المرجع السابق، ص 36؛ وينظر: أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (الإسكندريّة، نشر محمد أحمد بسيوني، 1968)، ص 300.

(29) ينظر : المرجع السابق، ص 44.

وهكذا يثبت لدينا أنه لولا إشاعة العرب وتبنّيهم لموضوع كرويّة الأرض، التي قال عنها الإغريق، لما خطر ببال رجل مثل كولومبوس أن الاتجاه نحو الغرب يمكن أن يؤدي به إلى الهند، ولما كان في استطاعته أن يكتشف العالم الجديد. فالعرب لهم فضل كبير في الكشف عن نصف الكرة الغربي لما أشاعوه من نظريات مدعمة بالأدلة والبراهين(30). ولم تقتصر مهمّة العرب والمسلمين على إشاعة موضوع كروية الأرض فحسب، وإنّما كان لجهودهم في علوم الملاحة، والأجهزة العلميّة التي استخدموها، ومؤلفاتهم في هذا المجال دور كبير في نهضة أوربا وتقدمها في مجال الكشف والريادة، وفي مجال اقتحام الروّاد للبحار والمحيطات.

ويأتي في مقدمة الأجهزة التي استفاد منها الأوربيون، الإبرة المغناطيسية أو البوصلة، التي اختلف الباحثون حول مخترعيها. ولكن من المرجح أنها من اكتشاف الصين. ولما كانت صلات العرب وثيقة ببلاد الصين، فقد أخذوها عنهم واستخدموها في الملاحة منذ القرن 11/5، واحتفظوا بسرّ تركيبها الذي كان يسمح لهم بمزاولة التجارة البحريّة(31). وقد أشار الإدريسي إلى البوصلة في مؤلفاته على أنها كثيرة الشيوع بين البحارة العرب، وعن طريقهم عرفها الأوربيون، لكنهم لم يستخدموها قبل القرن 13/7(32) . ومازالت البوصلة تحتفظ باسمها العربي في بعض اللغات الأوربيّة، فهي بالفرنسيّة (Boussole) ، وبالإيطاليّة (Bossole) وبالإنكليزية (Bossala)(33) .

ومن بين الأجهزة التي أخذها العرب عن الإغريق الأسطرلاب واللبنة، وهي صفيحة مربعة مدرجة لقياس البعد بين شيئين، والحلقة الاعتداليّة التي تستخدم لقراءة الميل عند الزوال. وقد أدخلوا على هذه الأدوات الكثير من التحسينات، وأضافوا إليها أجهزة أخرى من ابتكارهم، مثل المزولة الشمسية، وذات السمت والارتفاع، والحلقة الكبرى والحلقة الصغرى، وغيرها من الآلات الأخرى التي أشار ابن ماجد إلى اختراعه لها لتسهيل الاسترشاد في البحر(34). وقد كان لصحيفة أبي إسحق إبراهيم بن يحيى الزرقالي (ت. 480 هـ / 1087 م) صاحب الجداول الفلكيّة الشهيرة أبعد الأثر في أوربا فيما يختص بتحسين الأسطرلاب واستعمالاته(35).

وكان للمؤلفات العربيّة الخاصة في علم الملاحة أو البحر أثر كبير في تطور هذه العلوم واستفادة الأوربيين منها بشكل خاص، ويأتي كتاب **الفوائد في أصول علم البحر**

---

(30) ينظر: محمد محمود الصياد، «أثر العرب والمسلمين في النهضة الأوربيّة في الجغرافيا»، فصل ضمن كتاب: «أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربيّة». (القاهرة، 1970)، ص 323.

(31) بيرتيط، المرجع السابق، ص 87.

(32) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، ط. 3، بيروت، 1979، ص 583-582.

(33) عاشور ورناتة، تاريخ الحضارة، ص 80.

(34) ينظر: كتاب الفوائد، ص 190-192.

(35) الصياد: المرجع السابق، ص 321.

والقواعد الذي ألفه شهاب الدين أحمد بن ماجد سنة 895 هـ / 1490 م(36)، أي قبل سنتين من وصول كولومبوس إلى العالم الجديد، في مقدمة هذه المؤلفات. وقد ضمّ معظم المعلومات النظريّة والعمليّة التي تهم الملاّحين، إضافة إلى البحث عن أصول الملاحة، وحجر المغناطيس، ومنازل القمر والنجوم التي تقابل أقسام الإبرة المغناطيسية. ويُعدّ هذا الكتاب أهم ما كُتب في أي لغة من اللغات في العصور الوسطى عن الجغرافية الفلكيّة والملاحيّة، وفيه لأول مرة اسم علم جديد هو علم البحر الذي تطور فيما بعد إلى علم الأقيونوغرافيا -Oceanogra (phy)(37).

وعلى الرغم من أن جزءاً كبيراً من معلومات هذا الكتاب خاص بالبحار الشرقيّة، فإنّ ذلك لم يمنع من استفادة الأوربيين منها، لا سيما البرتغاليين الذين كانوا على احتكاك دائم مع البحارة العرب، فاستفادوا من «المرشدات البحريّة» لابن ماجد التي مهّدت لتطوّر الكاتوجرافيّة الأوربيّة المتمثلة في ظهور الخرائط الملاحيّة (Portolani)، وهي خرائط يبدو عليها بوضوح أثر الكتابات الجغرافيّة العربيّة. كما تأثرت الخرائط نفسها إلى حد كبير بالرسوم البحرية العربية التي سبقتها، وكانت تستعمل في الملاحة العربية في المحيط الهندي على نطاق واسع(38). أما بالنسبة إلى الغرب، فقد كان تأثير الإدريسي، كما يرى الكاتوجرافي ميلر K. Miller(39)، واضحا على خارطة مارينو سانودو Marino Sanudo، التي نشرها فسكونتي -Vis conti عام 718-720 / 1318-1320، وعلى الخرائط القطلونية Catalonian† في شبه الجزيرة الإيبيرية، وإن حاول كراتشكوفسكي Krachkovski نفي هذا التأثير أو التقليل من أهميّته(40).

ولم تكن خرائط الإدريسي وحدها هي التي أثرت في الأوروبيين بل إن مؤلفاته الجغرافيّة التي ترجمت إلى اللاتينيّة، نقلت الكثير من علم الجغرافيّة إلى أوربا في العصور الوسطى(41). والواقع أن ترجمة الكتب العربيّة الخاصّة بعلم الفلك والنجوم، والملاحة البحريّة، زودت الأوربيين بكثير من المعارف في الفترة من 494 - 545 / 1100-1150، لاسيما ما ترجم في مدرسة طليطلة Toledo، التي أنشأ نيها رئيس الأساقفة ريموند الأول ق 12/6 مدرسة للمترجمين قامت بنقول ممتازة من العربية إلى اللاتينية، فخدمت حركة الانبعاث الأوربية بشكل عام(42).

---

(36) ينظر: ابن ماجد، المصدر السابق، ص 393.
(37) أنور عبد العليم، ابن ماجد الملاح، (القاهرة، 1966)، ص 150. وينظر أيضا: شهاب، علوم العرب البحريّة، ص ص 17-19.
(38) ينظر: الصياد، المرجع السابق، ص 336.
(39) أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، (ط 2، بيروت، 1987)، ص 323.
(40) المرجع نفسه، ص 323.
(41) لوبون، حضارة العرب، ص 567.
(42) يوجين أ. مايرز، الفكر العربي والعالم الغربي، ترجمة: كاظم سعد الدين (بغداد، 1986)، ص 101.

وقد وُجهت عناية خاصة لعلم الفلك الذي كان له علاقة كبيرة بالملاحة، وتحديد مواقع الكواكب والنجوم. فتولى الإسباني يوحنا الإشبيلي ترجمة كتب متعددة من العربية إلى اللاتينية، منها مؤلفات أبي معشر الفلكي، مثل كتاب المفضل الكبير إلى علم أحكام النجوم، وكتاب أحكام النجوم، لابن الفروخان، والزيج للبتاني، وكتاب المدخل إلى صناعة أحكام النجوم، ومؤلفات أخرى في نظام الكواكب السيارة للقبيصي، والزيج لمسلمة ابن أحمد المجريطي(43). أما جيرار الكرموني Gerardo de Cremona (508 - 583 / 1114 - 1187) الإيطالي، فقد نقل كتاب الأسطرلاب (الصحيفة الزرقالية) لإبراهيم الزرقالي(44).

وانطلاقا من إدراكه لأهمية المعارف العربية، حاول الملك الفونسو العاشر الحكيم، ملك قشتالة وليون (650 - 683 /1252 - 1284) أن ينشئ مدارس مختلفة في إسبانيا لترجمة المؤلفات العربية إلى الإسبانية، لا سيّما المؤلفات الفلكية(45). فأمر بترجمة كتب عديدة نشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر(46) : كتاب الصحيفة، ترجمة لرسالة الزرقالي في التنجيم، وكتابان في «ذات الحلق» مأخوذان من الزرقالي، وكتابان في الأسطرلاب المسطح وكتابان في الأسطرلاب الكروي، وكتابان في الصحيفة الزيجية من تأليف أبي الحسن بن خلف بن غالب الأنصاري القرطبي، وكتابان في صفائح الكواكب السبعة أو (الأسطرلاب).

وبالإضافة إلى هذا كله جمع الفونسو العاشر فريقا من العلماء العرب الذين بقوا تحت حكم الإسبان، فأصدروا «الزيج الألفونسي» سنة 648 هـ / 1250 م، أي الجداول الفلكية الخاصة بمنازل الشمس والقمر والكواكب والنجوم، وقد نسخت منها صور لمساعدة الملاحين الإسبان(47). وهذا دليل على اعتماد هؤلاء، وغيرهم من الأوروبيين على العرب في معرفة النجوم ومطالعها ومغاربها، واستخدام مجموعاتها في التعرف على الاتجاهات في عرض البحار. ويؤكد هذا استمرار استعمال الأسماء العربية للنجوم في كتب الملاحة الغربية مع شيء من التحريف البسيط كما يتّضح من الأمثلة الآتية(48):

العقرب : Akrab

---

(43) المرجع نفسه، ص ص 95-96.
(44) المرجع نفسه، ص ص 102 - 106.
(45) المرجع نفسه، ص 120.
(46) المرجع نفسه، ص 118-119.
(47) حسين فوزي، «المعارف الملاحية العربية في القرون الوسطى وأثرها على عصر النهضة»، فصل ضمن كتاب : أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبيّة، (القاهرة، الهيئة المصريّة العامة للتأليف والنشر، 1970)، ص350-351.
(48) الصياد، المرجع السابق، ص 321-322، عاشور ورفاقه، المرجع السابق، ص 114.

الدّبران : Aldebran

الغول : Algol

الغراب : Algorab.

هذا عن دور العرب والمسلمين في نقل المعارف الملاحية، وتسهيل مهمة الأوربيين في مجال الكشف والارتياد، فإذا ما انتقلنا إلى خبرة المسلمين العمليّة، وما يعرفونه فعلاً عن المحيط الأطلسي، نجد أن معلوماتهم كانت لا بأس بها بالنسبة إلى هذا المحيط، لا سيما شواطئه الشرقية. فكان لديهم على سبيل المثال معلومات عن بلاد شمال أوربا مثل الدانمارك، وبريطانيا، وآيلندة، فضلاً عن السواحل التي تطل على القارة الإفريقيّة، خاصة خليج غانة. وتتوفّر في مكتبة الأسكوريال بإسبانيا خارطة عربيّة لهذا المحيط (مخطوط رقم 1636 - II) يرجع تاريخها إلى ما قبل سنة 594 هـ / 1198 م. وهي تصور ما كان يعرفه العرب في ذلك الحين عن المحيط الأطلسي(49). وعلى الرغم من ذلك، فقد وصفوه في كتاباتهم بأوصاف مهولة تدلّ على الرهبة والوحشة، فهو «أوقيانوس الذي لا يعلم أكثر نهاياته، وهو الأخضر المظلم المحيط... وهو بحر الظلمات»(50). وقد وصفه أبو عبد الله محمد الإدريسي (ت 560 هـ/ 1164 م) بأنه البحر المظلم، أو البحر الأعظم، أو بحر الظلمات(51). كذلك يشير الحميري إلى شدّة أهوال هذا المحيط المظلم الذي لا عمارة وراءه ولا يعلم أحد ما خلفه(52)، ولكنّه يستدرك فيقول بأن هذا البحر «يُركب مما يلي المغرب والشمال، وذلك من أقاصي بلاد السودان إلى بريطانية، وهي الجزيرة العظمى التي في أقصى الشمال، وفيه ست جزائر تقابل بلاد السودان تسمى الخالدات (جزر الكناري)، ثم لا يعرف أحد ما بعد ذلك»(53).

ولكن هذه الأوصاف التي أطلقها الجغرافيون العرب على المحيط الأطلسي يجب ألاّ تمنعنا من محاولة التعرف على حقيقة نشاط البحارة المسلمين في هذا المحيط، وهل أنهم لم يكونوا فعلا بحاجة إلى ركوبه والتوغل فيه لعدم حاجتهم إلى الأوربيين تدر حاجتهم وتعاملهم مع الآسيويين، كما يرى أحد الباحثين الأجانب(54). وهذه المقولة مرفوضة بسبب قدم اتصال ملاحي المغرب والأندلس بملاحي المشرق عبر السواحل الغربية لإفريقيا، بل إن هذه الصلة ترجع

---

(49) ينظر : بيرنيط ، المرجع أعلاه، ص 85. مؤنس، المرجع أعلاه، ص 279.

(50) المسعودي ، المصدر أعلاه، 1/124.

(51) القارة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: إسماعيل العربي، (الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعيّة 1983)، ص 255، 266، 271.

(52) صفة جزيرة الأندلس، ص 1، 2.

(53) المصدر نفسه، ص 28-29.

(54) ينظر: Danial Boorstin, "The Discoveries", First Vintage Books Edition, 1985; p: 181,

نقلا عن : حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة (138)، الكويت،1989، ص 239.

إلى ما قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح، ورحلة بارثلميو دياز المشهورة سنة 891 هـ / 1486 م. ويرى خوان بيرنيط في بحثه القيم عن الأصل العربي للخرائط الملاحية(55)، أنّ النصوص المتوفّرة في مؤلفات ابن ماجد تحملنا على الظنّ بأنّ معلومات ملاحي المحيط الهندي عن السواحل الإفريقية للمحيط الأطلسي لا ترجع فقط إلى المعلومات التي أمدّهم بها البرتغاليون بعد رحلة فاسكو دي جاما، وإنّما من الممكن أن السفن الغربيّة، وملاحي الأندلس والمغرب في «الزّمن القديم» قد وصلوا إلى المحيط الهنديّ بعد أن طافوا بإفريقيا، ومرّوا برأس الرّجاء الصالح وزاروا سفالة في بلاد الزنج التي تقع على خطّ عرض 20 درجة جنوبا، وتقرب نسبيا من الطرف الجنوبيّ لقارة إفريقيا. وكانت السفن الشّراعيّة من ناحية أخرى تتردد على هذا الميناء منذ القرن 9/3 على الأقل. وهناك كانوا يلتقون بالملاّحين القادمين من الأندلس والمغرب(56). ويختم بيرنيط حديثه بتأكيد إبحار الملاّحين العرب في المحيط الأطلسي قائلا : «وكان العرب يبحرون في المحيط الأطلسي بكثرة، وذلك سواء لمصلحة تجاريّة أو للحصول على معلومات ذات قيمة علميّة، ولا ننسى في هذا الصدد أن العرب وهم يحذون حذو النظام البطليوسي قد اتخذوا من إحدى جزر المحيط الأطلنطي مكانا لبداية أو أصل خطوط الطول»(57).

وتجيب هذه المعلومات التي أسلفنا ذكرها بالإيجاب على سؤال إسماعيل العربي، في مقدمته القيّمة لكتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي، القائل : ألم تدفع روح المغامرة، أو على الأقل رياح الصدفة، بعض الملاحين العرب من الطرف الغربي، أو من الطرف الشرقي إلى محاذاة رأس الرجاء الصالح قبل البرتغاليين (58) ؟ ويؤكد إيجابيّة الجواب أيضا، ما أشار إليه هذا الباحث من أنّ رسالة الملاّح البرتغالي الشهير كابلهام إلى ملك البرتغال جان الثاني، سنة 882 هـ /1477 م، تنصّ على أنّ العرب كانوا يعرفون رأس الرجاء الصالح معرفة جيّدة. ولكن لا تتوفّر لدينا لحدّ الآن تفاصيل أدقّ، وشهادة عربيّة واضحة بهذا الخصوص. كذلك ليس لدينا نصوص تؤكد استخدام المرابطين، على سبيل المثال، للطريق البحريّ للتنقل من بلادهم إلى المناطق التي افتتحوها شمال الصحراء، على الرغم من أرجحيّة هذا الاحتمال، لاسيّما بالنسبة إلى الوصول إلى الأندلس(59).

ولكن هل اكتفى المسلمون بالإبحار في شواطئ المحيط الأطلسي الشرقيّة فحسب، دون

---

(55) هل هناك أصل عربي إسباني لفنّ الخرائط البحريّة ؟ ، ص 82-83.

(56) يقارن : مونس، المرجع أعلاه، ص 278.

(57) بيرنيط : المرجع أعلاه، ص 83. ويقارن : ابن ماجد، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، ص 276، الذي أشار إلى حقيقة اتخاذ العرب لإحدى جزر المحيط الاطلسي لتكون بداية خطوط الطول.

(58) كتاب الجغرافيا، ص 71-72.

(59) يقارن : بيرنيط، المرجع أعلاه، ص 85.

الولوج في أعماقه واستكشاف المجهول الذي وراءه؟ الحقيقة أن وضوح الفكرة التي أسلفنا الحديث عنها، وهي أن المتّجه غربا من شواطئ أوربا وافريقيا يصل إلى الهند والصين في المشرق، كانت دافعا كبيرا لبعض المغامرين منهم الذين لم ترهبهم ظلمات المحيط، ولا أمواجه الهائلة في محاولة التعرف عليه، والإبحار في أعماقه باتجاه الغرب(60). ويشير المسعودي(61)، في معرض حديثه عن هذا المحيط إلى إحدى هذه المحاولات أو المغامرات التي قام بها أهل الأندلس، فيذكر أن «رجلا من أهل الأندلس يقال له خشخاش، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها، جمع جماعة من أحداثها، وركب بهم مراكب استعدها في هذا البحر المحيط، فغاب فيه مدّة ثمّ انثنى بغنائم واسعة، وخبره مشهور عند أهل الأندلس».

ويمكن من الناحية الزمنيّة إرجاع هذه المغامرة إلى حدود منتصف القرن 9/3. أمّا النقطة التي بلغها خشخاش وجماعته، فهي غير معروفة، ويكتنفها الكثير من التخمين والافتراضات(62). ولكن بطل هذه المغامرة ليس نكرة بالنسبة إلى تاريخ الأندلس، فهو خشخاش بن سعيد بن أسود، الغساني، أحد زعماء البحريين الذين أنزلهم بنو أميّة في منطقة بجانة لحفظ السواحل، وأعطوا إقليم أرش اليمن غلّة لهم مقابل ذلك. وكان بيت بني الأسود من البيوت البحريّة المشهورة في بجانة. وقد شارك خشخاش في قيادة الأسطول الأندلسي الذي قاوم السفن النورماندية التي هاجمت الأندلس في عهد الأمير محمد الأول سنة 245 هـ / 859م(63).

والمغامرة الثانية التي تلت رحلة خشخاش، هي ما قام به جماعة المغرّرين، أي المخاطرين، أو المغرّبين أي الضاربين في الغرب، كما قرأها آدم متز(64). ويبدو أن القراءة الأولى، أي المغرّرين، أصح، ويتضح ذلك في استعمالات المسعودي لهذا اللفظ عندما يشير إلى بحر الظلمات و«أخبار من غُرِّر وخاطر بنفسه في ركوبه»(65).

وترقيت زمن هذه الرحلة غير معروف تمامًا، لكن من المرجح أنّه يرجع إلى القرن 10/4،

---

(60) ينظر: كراتشكوفسكي، المرجع أعلاه، ص 152.

(61) **مروج الذهب ومعادن الجوهر**: 119/1، وينظر أيضا: الحميري، المصدر أعلاه، ص 29-28.

(62) كراتشكوفسكي، المرجع أعلاه، ص 152.

(63) ينظر: أحمد بن عمر بن أنس العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق: عبد العزيز الأهواني (مدريد، 1965)، ص 119؛ حيان بن خلف بن حيان، **كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس**، نشر: ملشور أنطونيا، (باريس، 1937)، ص 88. الحميري المصدر أعلاه، ص 37. وينظر أيضا:
Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, (Paris, 1953). Vol. I, p. 354;
السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، **تاريخ البحريّة الإسلاميّة في المغرب والأندلس**، (بيروت 1969)، ص 191.

(64) **الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري**: 433/2.

(65) **مروج الذهب**: 119/1.

وذلك قبل إنشاء ميناء أسفي في المغرب، والذي ورد ذكر موقعه في هذه الرحلة(66).

وخلاصة هذه الرحلة التي يرويها الإدريسي، أن ثمانية رجال ينتمون إلى أسرة واحدة أعدوا مركبا، وشحنوه بما يكفيهم من الماء والزاد لأشهر، ثم اتّجهوا غربا في المحيط الأطلسي من أشبونة (لشبونة) عاصمة البرتغال الحاليّة، وذلك في أول هبوب الرياح الشرقيّة. فأبحروا في ذلك المركب نحوا من أحد عشر يومًا، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير القروش قليل الضوء، فأيقنوا بالتلف، فغيّروا اتجاههم وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوما أخرى، فخرجوا إلى جزيرة الغنم، وفيها من الغنم ما لا يحصى عدده، وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظر عليها، فقصدوا الجزيرة ونزلوها، فأخذوا من تلك الغنم وذبحوها، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها. ثم ساروا بعد ذلك باتجاه الجنوب اثني عشر يومًا إلى أن وصلوا إلى جزيرة عامرة، لكن سرعان ما ألقي عليهم القبض من قبل رجال أحاطوا بهم في زوارق عديدة. وقد وَصَفوا أهل الجزيرة بأنهم: شقر، زعر شعورهم سبطة، ورجالهم طوال القدود، ولنسائهم جمال عجيب. ودام حبسهم مدّة ثلاثة أيام، ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلّم العربيّة، فسألهم عن حالهم، فأخبروه بخبرهم، فوعدهم خيرا وأعلمهم أنه ترجمان الملك. ثمّ أعيدوا إلى مكان حبسهم بعد مقابلة الملك، إلى أن بدأ هبوب الرياح الغربية، فوضعوا في زورق سار بهم ثلاثة أيام، وصلوا بعدها إلى الشاطئ الإفريقي في موقع مدينة أسفي الحالية. حيث تُركوا هناك إلى أن عثر عليهم جماعة من البربر، وأخبروهم بمكانهم، وأنهم يبعدون نحو شهرين عن بلدهم الأندلس. فقال زعيم القوم، أي المغرّرين، وا أسفي، فسمي المكان إلى اليوم آسفي. ثمّ عادوا من هنا المكان إلى الأندلس، حيث أطلق اسمهم على أحد دروب أشبونة بالقرب من الحمة. وهو الجزء البحري من مدينة أشبونة الذي لا يزال يعرف باسمه العربي Alfana. وعرف بدرب المغرّرين إلى الأبد(67).

ومن المستبعد أن يكون هؤلاء المغرّرين قد وصلوا إلى بعض الجزر القريبة من الشواطئ الأمريكية في إقليم أمريكا الوسطى، كما يرى بعض الباحثين العرب(68). لكن من المرجّح أن الجزيرة الأولى التي ورد ذكرها في الرحلة هي إحدى جزر أزورس Azores، أي (الجزائر الزرقاء)(69)، أو جزيرة ماديرة Madeira. أما الجزيرة الثانيّة، فهي إحدى جزر الكناري Canaries(70). والمهمّ في أمر هذه الرحلة أنها وردت عند الإدريسي على أنها ليست غريبة أو

---

(66) ينظر: كراتشكوفسكي، المرجع أعلاه، ص 153، بيرنيط، المرجع أعلاه، ص 84، ويحدّد تاريخ هذه المغامرة بعام 423 / 1031.

(67) ينظر نص الرحلة عند: الإدريسي، ص 271-273؛ الحميري، ص 16-18.

(68) ينظر: عاشور ورفاقه، ص 80.

(69) مؤنس، ص 275-276.

(70) ينظر: كراتشكوفسكي، ص 153 الذي ينقل رأي بيزلي C.R. Beazley في كتابه: The Down of Modern Geography Oxford, 1906, Vol. III, pp. 532-533;

وينظر أيضا: بيرنيط، ص 84.

عجيبة من العجائب التي تزخر بها بعض كتب الجغرافيين القدامى. ولكنها «في الواقع جزء من جغرافيته، فهي أول وصف لدينا لمياه المحيط الأطلسي على بعد شاسع من شواطئه...»(71). فإذا حسبنا مقدار ما قطعه أولئك الرجال في المحيط الأطلسي، وجدنا أنهم قضوا ثمانية وثلاثين يوما في مياه المحيط (11 + 12 + 12 + 3) قطعوا فيها نحو ثلاثة آلاف وثمانمئة كيلومتر، باعتبار أن متوسط ما تقطعه السفينة الشراعيّة في تلك العصور هو في حدود مائة كيلومتر في اليوم. وهذه أطول مسافة قُطعت في المحيط الأطلسي إلى ذلك الحين، وهذا في ذاته عمل عظيم سبق به المسلمون غيرهم، وهو أمر محقّق لا خيالي(72). وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يقال عن الرحلة، والافتراضات والتخمينات التي ربّما تكتنف بعض جوانبها، فإن المتخصّصين في جغرافيّة العصور الوسطى يعتقدون أنها ساهمت في الحثّ على الرحلات المتأخّرة التي قام بها الملاحون الأوروبيون في المحيط الأطلسي(73).

ولم يكن أولئك الأندلسيون هم العرب والمسلمون الوحيدون الذين أقدموا على ركوب هذا المحيط، وجاءوا لنا بمعلومات عنه، فإن لدينا نصوصا أخرى تدلّ على أن خروج المسلمين من إسبانيا باتجاه الغرب كان أمرا كثير الحدوث. وقد أسلفنا الإشارة إلى رحلة خشخاش في هذا المجال، كما يذكر أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت. 749 هـ / 1349 م)(74). مغامرة أخرى، ولكن هدفها كان التجارة في هذه المرة، تمت كما يبدو في عصره، ينقلها عن الشيخ الإمام أبي عبد الله بن الصائغ الأموي، الذي يرويها بدوره عن الوزير أبي عبد الله محمد بن زاغنوه من أهل المرية بالأندلس، وهو ثقة بين الفقهاء والعلماء. وملخص الرواية أن هذا الوزير ركب في مركب للتجارة مع مجموعة من تجار بلده في البحر المحيط قاصدين بعض بلاد العدوة، أي الجانب الإفريقي. فقذفتهم الريح إلى أبعد من المكان المقصود، وعجزوا عن الوصول إلى البرّ، وتوغّلوا في داخل المحيط باتجاه الجنوب، إلى أن وصلوا إلى مناطق مظلمة جدا. ثم تغيير اتجاه الريح، واستطاعوا أن يرجهوا المركب باتجاه البرّ الإفريقي، ووصلوا إلى مدينة لم يعرفوها، أهلها من السود، واستمروا في الانتقال حتّى وصلوا برّ العدوة، أي الجهة المقابلة للبرّ الإسباني. ويبدو أنهم نزلوا في منطقة بعيدة على ساحل المحيط، كما حصل للفتية المغرّرين، الذين رسوا في منطقة آسفي بالمغرب.

وكان للمسلمين من سكان المناطق الغربيّة لقارة إفريقيا دور كبير في مجال الكشف عن أسرار المحيط الأطلسي والتوغّل في أعماقه باتجاه الغرب، أو الإبحار ضمن سواحله الشرقيّة

---

(71) مؤنس، المرجع السابق، ص 277.
(72) المرجع نفسه، ص 277.
(73) كراتشكوفسكي،ص 153، نقلا عن بيزلي : Beazley, op. cit. p. 533.
(74) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ممالك إفريقيا ما وراء الصحراء وممالك إفريقية وتلمسان وجبال البربر وبر العدوة والأندلس)، تحقيق : مصطفى أبو ضيف أحمد، (الدار البيضاء، 1988)، ص 75-76.

المحاذية لقارة إفريقيا. ويأتي في مقدمة هؤلاء الرواد المسلمين رحالة بحري مجهول يسمى ابن فاطمة، عاش في القرن 12/6. وهو فيما يبدو من أهل السودان الغربي، وربّما كان أصله مما يعرف اليوم بالسنغال، أو ما يليه جنوبا، وربما كان من أهل غانة الإسلاميّة، التي تشمل في الوقت الحاضر جمهوريّة مالي على وجه التقريب. وكانت نسبة الرجال إلى أمهاتهم شيئا مألوفا في تلك النواحي، ويتوفر لدينا أسماء أخرى، مثل، داود بن فاطمة، الذي هو أحد دايات (حكام) البرنو الإسلاميّة(75). كذلك أسماء رجال آخرين من المرابطين مثل، ابن الصحراويّة، وابن غانية، وابن عائشة، وابن حمّو بنت يوسف بن تاشفين، وكلها شبيهة باسم ابن فاطمة(76).

وقد اعتمد ابن سعيد المغربي على المعلومات الواردة في كتب ابن فاطمة، والتي وصف فيها رحلته البحرية التي تجاوز فيها الرأس الأبيض Caba Blanca . وطاف بقسم كبير من أوربا . كما أعطى أوصاف دقيقة للسواحل الشرقيّة للمحيط الأطلسي والجزر الواقعة فيه، مثل الجزائر الخالدات(77)، وغيرها. كذلك اعتمد عليه ابن سعيد في وصف شواطئ الصحراء الغربيّة حينما نزل بها بعد تحطم مركبه، حيث ينقل عنه قائلا(78): «وذكر ابن فاطمة أنه ركب البحر المحيط مرة في نول لمطة فأخرم به المركب فوقع إلى ضباب وأقاصير. وضل البحريّون ولم يعلموا حيث هم حتّى تركوا المركب الكبير وأخذوا زادا في القارب الصغير... ولم ينتهوا إلى البرّ إلاّ وقد كاد الزاد يفرغ...»، ومن المؤسف أنّنا لا نعرف شيئا عن ابن فاطمة هذا، ولا عن كتابه ، الذي يُعد، بدليل ما نقله عنه ابن سعيد، من أحسن كتب الرحالة المسلمين، لا سيّما وأنه تخصص في مجال الشواطئ الشرقيّة للمحيط الأطلسيّ، في وقت لم تكن فيه الاتصالات الأوربيّة قد بدأت في تلك السواحل(79).

وتمثل رحلة ابن فاطمة ومغامراته البحريّة اهتماما محدوداً على نطاق الجهد الشخصيّ لهذا الرحالة المسلم. أمّا أضخم عملية لاكتشاف المحيط الأطلسيّ، فقد تمّت على مستوى اهتمام دولة كبيرة، بل امبراطوريّة عظمى، هي امبراطوريّة مالي الإسلاميّة التي ظهرت في السودان الغربي بعد التفكك السياسيّ الذي أصاب دولة غانة الإسلاميّة في النصف الأوّل من القرن 13/7(80) . وكانت بداية انتشار الإسلام بين شعب الماندينجو Mandingo . الذي شكل نسبة كبيرة من

---

(75) ينظر : إبراهيم علي طرخان ، امبراطورية البرنو الإسلامية، (القاهرة ، 1975) ، ص 94.
(76) مؤنس، ص 507.
(77) ينظر : ابن سعيد، ص 90 ؛ عماد الدين إسماعيل بن محمد المعروف بأبي الفداء، تقويم البلدان (باريس، 1840) أعادت طبعه مكتبة المثنى ببغداد، ص 186.
(78) ابن سعيد، ص 111-112 (حيث ورد النص كاملا).
(79) عن تفصيلات اتصالات الأوربيين بالساحل الإفريقي ينظر : هـ. ج. وود : الارتياد والكشف الجغرافي، تعريب : شاكر خصباك (بيروت ـ صيدا، د.ت.) ، ص 54-55.
(80) ينظر: ابن خلدون العبر 200/6 (بيروت 1979) وينظر أيضا :
Peter Garlake, The Kingdoms of Africa, (Oxford, Elsevier, Phaidon, 1978), pp. 122-123.

سكّان هذه الدولة، قبل قيام امبراطوريّة مالي بوقت طويل(81). ويعود الفضل في ذلك إلى جهود التجّار والعلماء والدعاة الإباضيّين منذ القرن 8/2(82). ثمّ تغلغل الدين الإسلاميّ وتركز في المنطقة بفضل جهود الحركتين المرابطيّة والموحديّة، لا سيّما في أوائل أيّام الحركة الأخيرة(83). وتشمل الرقعة التي امتدّ عليها حكم هذه الأمبراطوريّة، معظم جمهوريّة مالي الحاليّة، والسنغال الشرقيّ، وغامبيا، وشمال غينيا، وشمال كل من فولتا العليا والداهومي، والجنوب الأقصى من جمهوريّة موريتانيا. وبعبارة أخرى، امتدت من المحيط الأطلسي إلى الانحناءة الكبيرة لنهر النيجر(84).

وبلغت هذه الأمبراطوريّة أوج ازدهارها وقوتها في القرن 14/8، لا سيما في عهد ملكها منسا موسى بن أبي بكر الثاني(85). (712 - 738 هـ / 1312 - 1337 م). وفي عهد والده أبي بكر تمّت محاولتان لاستكشاف المحيط الأطلسي. ومعلوماتنا عن هاتين المحاولتين جاءتنا من رواية السلطان منسا موسى التي ينقلها العمري عن الأمير أبي الحسن علي بن أمير حاجب والي مصر الذي اجتمع بالسلطان موسى عندما زار مصر سنة 724 هـ / 1324 م، في طريقه إلى الحج. وهي الرواية الوحيدة عن الموضوع، والتي ينقلها أيضا القلقشندي عن العمري، وهذا نص الرواية(86):

«قال ابن أمير حاجب: سألت السلطان موسى، كيف انتقلت إليه المملكة، فقال: نحن أهل بيت نتوارث الملك، وكان الذي قبلي لا يصدق أن البحر المحيط لا يمكن الوقوف على آخره، وأحب الوقوف على هذا وولع به، فجهز مائتي مركب مملوءة بالرّجال وأمثالها مملوءة بالذهب والماء والزاد ما يكفيهم سنين، وقال للمسافرين فيها: لا ترجعوا حتّى تبلغوا نهايته وتنفذ أزوادكم ومازكم، فساروا وطالت مدة غيبتهم لا يرجع منهم أحد حتّى مضت

---

(81) ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، 200/6؛ أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن طبعة القاهرة، د.ت.)؛ 293/5.

(82) أحمد إلياس حسين، «دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي قبل القرن الثالث عشر الميلادي»، بحث نشر ضمن كتاب: ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، (بغداد، معهد البحوث والدراسات العربية، 1985)، ص 94.

83) E.W.Bovill, The Golden Trade of the Moors, (2nd Edition, Oxford, Oxford University press, 1970), p. 85;

ويقارن: دريد عبد القادر نوري، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من القرن 4-10 هـ / 10-16 م، (الموصل، مديرية مطبعة الجامعة، 1985)، ص 147

(84) ينظر: العمري، ص 59-67؛ ابن خلدون: 200/6؛ الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، بيروت، 1983)؛ 164/2؛

Bovill, op. cit., p. 51 : The Times Atlas of World History, Edited by: Geoffrey Barraclough, (London, Books Club Associates, 1978) p. 136. Encyclopeadia Britannica, (15th edition, U.S.A., 1979), Vol. VI, p. 537.

(85) ينظر: ابن خلدون، 200/6.

(86) ينظر: العمري، ص 69-70؛ القلقشندي: 294/5-295.

مدّة طويلة، ثمّ عاد مركب واحد منها، فسألنا كبيرهم عما كان من أمرهم وخبرهم فقال : تعلم أيّها السلطان، أنا سرنا زمانا طويلا حتّى عرض في لجة البحر واد له جرية قويّة، وكنت آخر تلك المراكب فأمّا تلك المراكب فإنّها تقدّمت، فلمّا صارت في ذلك المكان ما عادت ولا بانت ولا عرفنا ما جرى لها، وأمّا أنا فرجعت من مكاني ولم أدخل ذلك الوادي. قال فأنكر عليه. قال ثمّ إن ذلك السلطان أعد ألفي مركب: ألفا له ولرجال استصحبهم معه، وألفا للزاد والماء، ثم استخلفني وركب بمن معه في البحر المحيط وسافر فيه وكان آخر العهد به وبجميع من معه واستقلّ لي الملك». وتؤكّد هذه الرّواية اليقين القاطع لدى السّلطان أبي بكر الثّاني أنّه يمكن الوقوف على آخر البحر المحيط، لهذا لم يكتف بفشل المحاولة الأولى، وقاد بنفسه المحاولة الثّانية التي اصطحب فيها حسب ما يرويه السّلطان موسى ألفي مركب. وعلى الرّغم من المبالغة الواضحة في عدد المراكب، إلاّ أنّها تشير إلى مدى الاهتمام والاستعداد لهذه الرّحلة التي كان القصد الأوّل منها ليس اكتشاف المحيط فحسب، إنّما محاولة الوصول إلى آخره من جهة الغرب. وربّما كان سبب اختفاء المراكب الأولى، وبالطريقة التي أشار إليها قائد المركب العائد، يرجع إلى أنها وصلت إلى منطقة مثلث برمودا في البحر الكاريبي واختفت هناك، فإن صحّ ذلك، فهي الإشارة المتقدّمة الأولى لهذه الظاهرة.

وقد التبس موعد هذه المغامرة على أحد المؤرخين المحدثين(87)، فحدده بالفترة التي تلت عهد السلطان منسا موسى. ولكن الثابت، كما يذكر ابن خلدون(88)، أنّ والد السلطان الأخير، هو أبوبكر. وفي عهده تمّت عمليتا المحيط الأطلسي، وذلك في حدود سنة 710 هـ / 1310 م(89). ويشير خوان بيرنيط(90)، إلى اسم رجل يدعى محمد والمنسوب إلى قاوْ Gao، على أنه هو الذي قام بالرحلتين المذكورتين في طريق أمريكا، وأنه شرع في رحلته الثانية حوالي عام 707 هـ / 1307 م، وهي التي انتهت باختفاء أسطول حاكم منديجو صاحب المشروع. ولا تتوفر لدينا معلومات عن محمّد القاوي هذا، الذي ينسب كما يبدو إلى مدينة قاو، التي كانت عاصمة مملكة سنغاي منذ القرن 11/5(91). لكنها وقعت ضمن سيطرة أمبراطوريّة مالي في أواخر القرن 13/7(92). وكانت من أهمّ مدن نهر النيجر التي تملك أسطولاً من السّفن المسلّحة في هذا النهر(93). وربّما كان محمّد القاوي أحد قادة هذا الأسطول، الذي استطاع

(87) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين 1493-1591، (الجزائر د.ت.)، ص 23.
(88) العبر : 200/6.
(89) يقارن : J.Spencer Trimingham, A History of Islam in West Africa, (Oxford, Oxford University press, 1978), p. 67.
(90) هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط البحريّة ؟ ص 85-86 ؛ ونقل ذلك عنه أيضا : سالم والعبادي ، ص 191.
(91) زبادية : ص 25.
(92) ابن خلدون ، 200/6 ؛ القلقشندي، 293/5-294.
(93) See: Garlake, op. cit., p. 123.

أن يقنع السلطان أبا بكر الثاني بفكرة اكتشاف المحيط، وتنفيذ هذه الفكرة حسب الخطة التي أسلفنا الإشارة إليها.

ولا تتوفّر لدينا أيّة معلومات عن المكان الذي وصل إليه أسطول حاكم مالي، لكنّه بالتأكيد كان يسير باتّجاه الغرب على طريق العالم الجديد. ومن المحتمل جداً أن تكون أنباء مغامرته هذه قد وصلت إلى مناطق مختلفة في سواحل المحيط الأطلسي الشرقيّة، لاسيّما شبه الجزيرة الإيبيريّة. وإن كان حاكم مالي لم يستطع الوصول إلى سواحل العالم الجديد، فإنّ هناك من يرى أن جماعات أخرى من المسلمين قد وصلت فعلاً إلى منطقة البرازيل الحاليّة، تلكم هي قبيلة بني برزال من منطقة المسيلة في جبال الأطلس الأوسط، وأنّ اسم البرازيل مشتقّ من اسم هذه القبيلة (بنو برزال)، وأن بقايا عربيّة قد عثر عليها في مناطق مختلفة من تلك البلاد(94). فهي لذلك تمثل أقدم اتصال عربيّ إسلاميّ مباشر بالعالم الجديد.

هل كان لأهل الأندلس والمسلمين في غرب إفريقيا دور في اكتشاف العالم الجديد ؟ للإجابة عن هذا السؤال وقع التّركيز على عدّة محاور منها : دور العرب والمسلمين في المعرفة الملاحية عامّة، وكذلك معرفتهم الجغرافيّة، واقتناعهم التّام بكروية الأرض، والنظريّة التي تقول : إن المتوجّه من شواطئ أوربا غربا يصل إلى آسيا شرقا. وهي النظريّة التي قامت على أساسها رحلة كريستوف كولومبوس.

ووقع إبراز خبرة المسلمين العمليّة، وما كانوا يعرفونه فعلا عن المحيط الأطلسي، لا سيما شواطئه الشرقيّة كما تمّ تتبّع مغامرات الأندلسيين، وبعض سكّان غرب إفريقيا فيه قصد الاستطلاع والاستكشاف : منها رحلة خشخاش بن سعيد بن أسود القساني، ورحلة الرجال المغرّرين، الذين أشار إليهم الإدريسي، ومغامرات ابن فاطمة في السواحل الشرقيّة لهذا المحيط، وأخيرا : مغامرة ملك مالي أبي بكر الثاني لاكتشاف المحيط، ولا شكّ أنّ هذه المغامرات قد مهّدت الطريق للرحلات المستقبليّة التي قام بها الأوربيون. والتي توّجت برحلة كريستوف كولمب، واكتشاف العالم الجديد ./.

(94) ينظر : فخار إبراهيم فخار ، «بنو برزال بمسيلة في البرازيل وأسطورة كريستوف كولومب»، مجلة الثقافة، العدد 20، (الجزائر، 1974)، ص 30-47.

أخبار ابن وهبون وبقيّة أشعاره*
(القسم الأوّل)

بقلم الاستاذ: مبارك الخضراوي

المقدّمة :

أ - الموضوع :

لا نكاد نعرف من الشعراء العرب القدامى تقريبا سوى المشاهير منهم أصحاب الدواوين المطبوعة التي اعتنى بها الباحثون دراسة ونقدا. فأبدع بعضهم في بعض جوانبها إلى حدّ الطرافة، ونبّهوا غيرهم على مواطنَ فيها كانت خفيّة، واكتفى غيرهم من الدارسين بتقليدهم وصياغة أفكارهم في أشكال مختلفة لا تضيف جديدا إلى الأدب العربي.

وكان أولى بهؤلاء الدارسين المقلّدين أن يوجهوا عنايتهم إلى مجموعة هائلة من الشعراء المغمورين الذين ضاعت دواوينهم، وتناثرت أشعارهم في بطون المصادر ومظانها أو بقيت مخطوطة في رفوف المكتبات العربيّة والأجنبيّة. ذلك أن ما لدينا من دواوين شعرية على كثرتها لا يمثل المدونة الشعريّة العربيّة بل هو جزء من كل مَا يزال في حاجة إلى بحث وتنقيب لغزارة التراث الشعري عند العرب.

لذلك آثرنا في هذا البحث المتواضع حجما ومحتوى أن نعتني بأحد الشعراء الأندلسيين المغمورين حتى نجلو الغبار عنه، ونجنّب من سيهتم به بعدنا عناء البحث عن أشعاره المتفرقة في مصنّفات الأدب ومنتخباته.

فتم اختيارنا على القرن الخامس الهجري الذي راجت فيه سوق الأدب في الأندلس في ظل حكمَ ملوك الطوائف، ومنهم بنو عباد في إشبيلية الذين اهتموا بالشعر اهتمامهم بالسياسة، فقربوا الشعراء وأجزلوا لهم العطاء، فنبغ فيهم شاعر من أهل مرسية طرأ على إشبيلية يطلب العلم والمجد والجاه. فمن يكون هذا الشاعر ؟

إنه عبد الجليل بن وهبون الذي أردناه موضوعا لهذا البحث بعنوان «أخبارُ ابنِ وهبونَ وبَقيةُ أشعاره».

ولسائل أن يسأل لمَ الاهتمام بابن وهبون دون سواه، وغيره من الشعراء المغمورين كثيرون ؟

ب - دَوَاعيــــــه :

تبدو دواعي الاهتمام بابن وهبون كثيرة، ولعل من أبرزها ضياع تصنيف ابن بسام المسمى «كتاب الإكليل المشتمل على شعر عبد الجليل»، ومن حسن حظّ الباحثين أن خصص له صاحب الذّخيرة في مدوّنته الكبرى فصلا لا يستهان به، ذكر فيه بعض أخباره، وأثبت جملة من أشعاره. لكن مع ذلك يبقى شعر ابن وهبون مشتّتا في مصادر الأدب الأندلسي، ممّا يستدعي جمعه وتحقيقهُ.

ولم نر لأحد من الدراسين والباحثين تصنيفا جمع فيه أشعار ابن وهبون وذكر أخباره سوى اثنين من المهتمين بالأدب الأندلسي في المشرق (*) أملًا أن تجمع أشعاره يوما. وخصه كل واحد

(*) بحث تقدم في سبتمبر 1985، لنيل شهادة الكفاءة في البحث بعنوان «أخبار ابن وهبون وبقية أشعاره» أمام لجنة تكونت من الاساتذة: جمعة شيخة: رئيسا، صالح البكاري: مشرفا، ابوبكر بلحاج: عضوا

منهما بدارسة كانت الأولى ضمن مجموع والثانية مستقلة. وهما دراستان لا تعطيان الشاعر حق قدره لأنهما لم تأتيا على كل جوانب أخباره ولم تشتملا على كل أشعاره.

ولاحظنا أيضا ونحن نمارس شعر ابن عباد وابن حمديس وابن خفاجة أنّ لهم رابعا به تتضح أشعارهم، إذ كان لهم صديقا وجليسا. كثيرا ما تردد اسمه في المراجع التي أوردت شعرهم، ولكننا لا نعرف عنه شيئا ولا نحفظ له قسيما.

فهذه الدواعي مجتمعة حدت بنا إلى محاولة جمع أخباره وتحقيق أشعاره ودراستها مساهمة منا في إثراء المكتبة الأندلسيّة والتعريف بشاعر له قيمته ولكنّه بقي مغمورا لدى الباحثين والمختصّين.

ج ـ المَنْهَجُ :

حرصنا في المرحلة الأولى من البحث على التعريف بالشاعر باعتباره مغمورا، وتحديد ملامح حياته وأطوارها، وذكر أبعاد رحلته إلى إشبيلية، وعلاقاته بشعراء عصره وذوي الجاه والسلطان، ورسم شخصيته من خلال أخباره، وتحديد سنة وفاته.

أما في المرحلة الثانية من البحث فسعينا إلى بيان أسباب إعادة جمع أشعاره بعد محاولة ابن بسام التي لم تعثر عليها، فأبرزنا عدد الأبيات المتحصل عليها موزعة على عدد قطعها، ثم سعينا إلى بيان الملامح العريضة لمجموع أشعاره على مستوى المبنى والمعنى والأغراض. وتلمسنا من خلال ذلك شاعريتهُ ومواقفه وآراء القدامى والمحدثين في شعره. ولا ندعي لهذا الجانب من البحث الإحاطة والشمول بل يبقى في نظرنا فاتحة لدراسة أعمق وأشمل لمن أراد أن يهتم بأخبار ابن وهبون وشعره.

وفي مرحلة ثالثة جمعنا الأشعار وحققناها معتمدين الطريقة التالية :

- ذكر المناسبة أو الموضوع في طالع المقطوعة.
- ذكر بحرها بين قوسين.
- ترتيب الأشعار على القوافي؛ المضموم منها فالمفتوح فالمكسور فالساكن، فما وصل بالهاء.
- ترقيم الأبيات وشكل النص.
- تخريج الأبيات اعتمادا على التسلسل التاريخي مع مراعاة أكثر المصادر إيرادا لأبيات المقطوعة.
- ذكر اختلاف الروايات وإثبات الرواية التي تلائم المعنى أكثر من سواها.
- تخصيص باب للتعليق، شرحنا فيه بعض الألفاظ، وأشرنا فيه إلى مواطن التضمين أو الخلل في الرواية اعتمادا على هوامش تدل عليها أرقام الأبيات.

د ـ المَصَادِرُ :

بَدَا شعر ابن وهبونَ متناثرا في بطون المصادر والتراجم الأندلسيّة وكتب الدراسات الأدبيّة. والناظر في تخريج المقطوعات يلاحظ غزارة هذه المصادر والمراجع، مما لا يدع مجالا للشك في سيرورة أشعاره عبر القرون، وقيمتها الأدبيّة والفنيّة.

ولعل الجدول المصاحب الذي وزعنا فيه المقطوعات على مصادرها ومراجعها يوضّح ذلك.

إذ أنه يشير إلى عدد القطع وتواترها في المصادر والمراجع الحديثة، ولكنه لا يضبط عدد الأبيات في كل واحد منها ، ذلك أنه تمت الإشارة إليها في التخريج.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن بسام في الذخيرة أورد له 370 بيتا ، في حين أورد له صلاح خالص وهو من المحدثين 226 بيتا من مجموع مدونته التي عثرنا فيها على 459 بيتا. وقد كانت أغلب المصادر تنقل عن بعضها . ونادراً ما ينفرد مصدر منها بمقطوعة. وأما المراجع فهي تنقل عن المصادر في تحريف كبير أحيانا. ويتجلى ذلك خاصة فيما أورد له محمد مجيد السعيد وصلاح خالص. وقد نبّهنا على ذلك في اختلاف الروايات.

الفصل الأول : أخبار ابن وهبون :

أخبار ابن وهبون :

1 ـ اسمه وكنيته : أجمعت المصادر التي ترجمت له على أنّ اسمه الكامل هو أبو محمد (1) عبد الجليل بن وهبون المرسي(2) الأندلسي(3) المعروف بالدّمعة(4).

2 ـ ملامحُ حياته وأطوارُها : لم نعثر فيما عدنا إليه من مصادر قديمة ، سواء أكانت أدبيّة أم تاريخية، على إشارة إلى تاريخ ولادته، وإن كان اثنان(5) من المعاصرين حاولا التعريف به، وحصرا ذلك فيما بين سنة 1038/430 وسنة 1048/440، تقريبا لا يقينا.

وإنْ سلّمنا بهذا التخمين تكون ولادته أيام بني طاهر الذين حكموا مملكة مرسية(6) باسم عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية(7) وبالتحديد زمن أبي بكر بن طاهر الذي حكم من سنة 1037/429 إلى سنة 1053/445 (8):

أ . مكـــــانها :

أجمعت المصادر التي عدنا إليها قديمها وحديثها على أنه ولد بشرق الأندلس وبالتحديد بمرسية، وإن لم يرد ذكرها في ما أمكننا جمعه من بقية أشعاره. ورغم ذلك فقد كان دائم التعلق بها والحنين إليها «وكانت له كلّ عام رحلة يتعهد فيها بلده وأهله»(9).

ولم نعثر في هذه المصادر على أخبار تساعدنا على معرفة تربيته الأولى ونشأته بها ولا عن تعلّمه وشيوخه.

---

(1) لم ترد هذه الكنية في الضبي: البغية 374، والمراكشي المعجب: 102، وابن شاكر: فوات 249/2.

(2) ابن خاقان: القلائد 278، وابن بسام: الذخيرة ق 2 / م1 / 473، والضبي: البغية 374، وابن شاكر فوات: 249/2، وابن خلكان : الوفيات : 426/4.

(3) ابن خلكان : الوفيات : 124/1.

(4) ابن بسام : الذخيرة ق 2/م1/479، والسلفي: الأخبار 19، وياقوت : البلدان 518/1، وابن شاكر : فوات 249/2.

(5) فروخ : أدب / 663، ودائرة المعارف 987/3.

(6) مرسية : قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمان بن الحكم على نهر كبير، ولها جامع جليل وحمامات وأسواق عامرة في مستو من الأرض. وعليها وعلى ربضها أسوار، وهي على ضفة النهر (الحميري : صفة جزيرة الاندلس 181-182).

(7) بلنسية : مدينة سهلية وقاعدة من قواعد الأندلس، بينها وبين البحر ثلاثة أميال، سورها مبني بالحجر والطوابي، ولها أربعة أبواب، وكان الروم تغلبوا عليها قديما ثمّ أحرقوها عند خروجهم منها سنة 1101/495، فرثاها ابن خفاجة وابن خلصة البلنسي (الحميري : الصفة : 47-48).

(8) عنان : دول 435.

(9) ابن بسام : الذخيرة ق 2 / م1 / 475.

ب ـ أسـرته :

أغفلت كتب الأدب والتاريخ والأعلام التي اعتمدناها الحديث عن أسرته، ولكن بعض المحدثين يرى أنها : «أسرة فقيرة متواضعة»(10) لن تبرز «أهميتها إلا في مستقبل حياة الشاعر»(11) الذي سينفض عنها غبار النسيان، وسيشق لنفسه بنفسه طريق المجد والشهرة في عصر «كان الشاعر أو الأديب لا يلفت اهتمام مؤرخي الأدب ورواته إلا إذا كان أرستقراطيا، أو حظي بالعناية والاهتمام في أوساط الخاصة من الأمراء والوجهاء»(12).

ولعلّ إحساس الشاعر بانتسابه إلى هذه الأسرة المتواضعة المغمورة، ولّد فيه التوق إلى حياة مغايرة هي مزيج من ارستقراطيّة فكريّة وماديّة، ترضي طموحه المادي الاجتماعي(13). فكيف السبيل إلى إرضاء هذا الطموح ؟

إنّها المغامرة وشدّ الرّحال إلى بلاطات أصبحت تستقطب العلماء والأدباء والشعراء. وهذا ما حدا بابن وهبون إلى ترك أسرته وبلده وشد الرّحال إلى إشبيلية(14).

ج ـ أبعـاد رحلتـه :

لئن كانت مرسية مسقط رأس الشاعر، فإنّ إشبيلية «بيت شرفه المشهور ومسقط عيشه المشكور طرأ عليها متحلا للطلب وقدْ شدا طرفا من الأدب»(15). فما كان حلما لشاعر مثله من أسرة متواضعة يصبح حقيقة في عاصمة بني عباد كعبة الشعراء والأدباء. وهكذا تكون غاية الرحلة طلب العلم والمعرفة ونيل العطاء عند ابن عباد الملك الشاعر الذي عُرف بالجود والسخاء، وقرّب إليه الشعراء. فكانت هذه الرحلة بأبعادها حدثا في حياة ابن وهبون فتح له بكر السبيل وغيّر ملامح نشأته الأولى في مسقط رأسه حيث كان مغمورا ليصبح واحدا من أهل إشبيلية ذا شرف مشهور يساعده على ربط علاقات مع أهل العلم والأدب والشعر، ومع ذوي السلطان والجاه.

فمع من ربط هذه العلاقات حسب المصادر التي بين أيدينا ؟ وما مدى تأثيرهم في حياة الشاعر بإشبيلية ؟

---

(10) دائرة المعارف 987/3، وخالص : مجلة 533/12.

(11) خالص : مجلة 533/12.

(12) المصدر نفسه : 534-535.

(13) انظر مثلا القطعة 9 و 41.

(14) اشبيلية : مدينة بالأندلس جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثلاثة أيام، ومن الأميال ثمانون. وهي مدينة قديمة أزليّة ويقال إن الذي بناها يوليش القيصر. لها سور حصين مرفية على النهر الكبير وكان سور إشبيليّة من بناء الإمام عبد الرحمان بن الحكم الحميري : صفة: 18-20.

(15) ابن بسام : الذخيرة : ق2 / م1 / 474.

3 ـ علاقاته بإشبيلية :

أ ـ علاقة ابن وهبون ببعض علماء عصره وشعرائه:

ـ علاقته بالأعلم الشَّنتمري(16) :

أشرنا ونحن نتتبع نشأة ابن وهبون الأولى في مترسبة إلى اجماع الدارسين قدامى ومحدثين على السكوت عن ذكر تربيته وثقافته وشيوخه، ولكنّ هذا السكوت بدأ ينجلي شيئا فشيئا بمجرد أن طرأ على إشبيلية منتحلا للطلب وهي «أكثر مراكز الثقافة الأندلسيّة آنئاك ازدهارا وأوسعها مجالا للنشاط الأدبي، حيث اجتمع حول المعتمد ووزيره ابن عمار أكبر شعراء الأندلس وعلمائها في القرن الخامس الهجري»(17). فاتصل بالأعلم الشّنتمري «وكان يومئذ زعيم البلد واستاذ ولد المعتمد، فعوّل عليه من رحلته وانقطع اليه بتفصيله وجملته. وكانت له في أثناء ذلك همة تترامى به إلىّ العلا ترامي السيل من أعالي الرّبى»(18). ووجد فيه ضالته المنشودة فجلس إليه ولازمه يتابع دروسه، فكان أول شيخ له في إشبيلية ساهم في صقل ثقافته وتكوينه، وأخرجه من العدم الذي تردّى فيه في بيئته الأولى إلى عالم الحياة والشهرة، فأصبح التلميذ مقدّما عند أستاذه بعد صحبة وانقطاع تأكد فيهما الشيخ من قدرة ملازمه على الشعر». فاتفق أن كتب ابن سراج(19) إلى المعتمد بشعر بائي من شطر الوافر يمدحه فيه. وكأنه ـ زعموا ـ عرّض بقرنه ومباريه وأعلم بذلك الأعلمُ، فصمت عن جوابه وأحجم وولاّها عبد الجليل، فأطلعه في أفقها قمرا ونبّه منه لحربها عُمَرا(20). فقال قصيدته البائية التي أولها «هَوَى بَيْنَ النُّجُوم لَهُ قِبَابُ»(21). فلو لم يأنس الأعلم في تلميذه كفاءة شعريّة تمكنه من الردّ على قصيدة ابن سراج، مَا كان ليجشم ابن وهبون شرف ذلك، خاصة أن القصيدة موجّهة إلى ابن عباد، ولعل الأعلم أراد بذلك ربط العلاقة بين هذا الشاعر الناشيء، الذي طرأ على إشبيلية يطلب العلم والمعرفة، وبين ابن عباد الملك الشاعر حتى يرضي طموح الشهرة فيه بعد أن أرضى فيه طموح المعرفة والفكر.

ولم نعثر فيما بين أيدينا من مصادر ذكرت أخباره على إشارة إلى انقطاع العلاقة بين التلميذ وأستاذه، أو إلى فتورها. بل إن شعره يؤكد خلاف ذلك، فقد رثاه بمطوّلة(22) بكاه فيها بكاء مرا، معددا فضائله ومناقبه، ومرطئا فيها عصارة تفكيره وتجاربه في الحياة والموت والمصير.

---

(16) هو أبو الحاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي المعروف بالأعلم : من أهل شنتمرية الغرب، كان عالما بالعربية واللغة ومعاني الأشعار، حافظا لجميعها، كُفّ بصره في آخر عمره. ولد سنة 1019/410 وتوفي سنة 1083/476 بمدينة إشبيلية ـ (انظر ابن خلكان الوفيات : 7/81-82).

(17) خالص : مجلة 534/12.

(18) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 م 1 / 474

(19) هو أبو مروان عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمود بن سراج، لغوي شاعر ولد سنة 1000/400 وتوفي سنة 1095/489 (ابن بسام: الذخيرة ق 1 م 2 / 810 وابن سعيد: المغرب 116/1)

(20) إشارة إلى قول بشار : الديوان 217.

«إذا أيقظتكَ حُرُوبُ العدا   فَنَبِّهْ لَهَا عُمَراً ثُمَّ نَمْ»

(21) ابن بسام : الذخيرة : ق 2/ م474/1-475

(22) انظر القطعة: 1.

ولعلّ هذا الوفاء بين الرجلين هو الذي ساعد ابن وهبون على الاندماج في الأوساط الأدبيّة والفكريّة التي راجت سوقها في إشبيلية آنذاك، ومكّنه من الالتقاء بغير أستاذه الأعلم من شعراء العصر...

علاقته بابن القبطرنه(23):

لئن قصر ابن وهبون علاقته بالاعلم الشنتمري على التلمذة وتحصيل العلم والمعرفة والطمع في التقرب من ابن عباد، فإنّ علاقته بابن القبطرنة تنزلت في إطار الصداقة والفسحة وترويض النفس فقد «ساير الوزيرَ الأستاذ أبا بكر بن القبطرنة وهو غلام يحار مجتليه ويغار غصن البان من تثنيه، وقد وضع يمناه في شماله وتضوّع عرف آماله والناس ينظرون هلال شوّال»(24).

علاقته بغلام البكري(25):

أما علاقته بغلام البكري فتجاوزت المؤانسة والمساجلة بالأشعار في ساعات الفراغ إلى ركوب النهر الكبير ليلا، وتعاطي الخمرة والتمتع بملذات الحياة. فقد «ركب بإشبيليّة زورقا في النهر الذي لا تدانيه السّراة ولا يضاهيه الفرات، في ليلة تنقبت بظلمتها ولم يبدو وَضَحٌ في دهمتها. وبين أيديهم شمعتان قد انعكس شعاعها في اللجة وزاد في تلك البهجة. فقال مرتجلا في الحين(26)، وكان معه غلامُ البكريُّ معاطيا للراح وجاريا في ميدان ذلك المراح. فلما جاء عبد الجليل بما جاء وحلّى للإبداع الجوانب والأرجاء حسده على ذلك الارتجال. وقال بين البطء والاستعجال»(27).

(الكامل)

1 . أَعْجِبْ بِمَنْظَرِ لَيْلَةٍ لَيْلاءِ
تُجْنَى بِهَا اللَّذَّاتُ فَوْقَ المَاءِ

2 . فِي زَوْرَقٍ يَزْهَى بِغُرَّةِ أَغْيَدٍ
يَخْتَالُ مِثْلَ البَانَةِ الغَيْنَاءِ

---

(23) هو أبوبكر بن القبطرنة أحد ثلاثة إخوة يعرفون ببني القبطرنة. وأبوبكر منهم: وهو عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز البطليوسي، كان كاتبا للمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس (464/1071 - 488/1095) وهو شاعر وأديب من غرب الأندلس توفي في إمارة علي بن يوسف بن تاشفين بعد سنة 520/1126 (ابن بسام: الذخيرة ق2 / م1/324)، المقري: النفح 1/155-156، دائرة المعارف3/837).

(24) ابن خاقان : القلائد: 278-279، المقطوعة 42. المقري: النفح 3/268.

(25) هو حكم بن محمد أبو الحسن غلام «البكريّ» : أديب شاعر محسن من شعراء الدولة العبادية. لم تكن له رحلة لسواها ولا تقدم في غير ذراها (ابن بسام : الذخيرة : ق2 /م2/563، الضبي: البغية : 265، وابن سعيد: المغرب، 1/348-349)

(26) انظر المقطوعة 22.

(27) ابن خاقان : القلائد 278-279، وابن ظافر : البدائع 254-255، والمقري: النفح 1/657.

3 - قَرَنَتْ يَدَاهُ الشُّمْعَتَيْنِ بِوَجْهِهِ
كالبَدْرِ بَيْنَ النَّسْرِ والجَوْزَاءِ
4 - والتَّاجُ تَحْتَ المَسَاءِ ضَوْءُ مِنْهُمَا
كالبَرْقِ يَخْفِقُ في غَمَامِ سَمَاءِ

علاقته بابن حمديس (28):

لم نعثر فيما اعتمدنا من مصادر ذكرت أخبار الشاعر إلا على خبر واحد رواه ابن حمديس نفسه تناقله عنه من جاء بعده إذ قال: «صنع لنا الشاعر أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي بإشبيلية نُزَاهَةً في الوادي شهدها جماعة من الشعراء والأدباء والمغنين. فأقمنا من بُكرة إلى العَشي فبرد الهواء وهبت ريح لطيفةُ النسيم وصنعت في الماء حبكا جميلا. فقلت عند ذلك للجماعة أجيزوا:

حَاكَتِ الرِّيحُ مِنَ المَاءِ زَرَدْ

فأجاز هذا القسيم كل إنسان بما سنح في خاطره. وكان في القوم الشاعر أبو تمام غالب بن رباح، الغالب على اسمه الحجام. فلما سمع ما أتى به كل واحد منهم قال لم يصنعوا شيئا ثم التفت إليّ وقال كيف قلت أنت يا أبا محمد، قلت:

حَاكَتِ الرِّيحُ مِنَ المَاءِ زَرَدْ

فقال مجيزا:

أيُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَدْ

فلم نحفظ لأحد منهم مع هذا شيئا»(29).

فهذا الخبر الذي أورده ابن حمديس يدلّ على مدى الصلة التي تربطه بابن وهبون وعلى اعترافه له بالشاعرية، إذ أضفى عليه لقب الشاعر، وكذلك على منزلته بين شعراء عصره الذين لبّوا دعوته وخرجوا معه في نزهة للتمتع بفتنة طبيعة إشبيلية وجمال نهرها البديع.

---

(28) هو عبد الجبار أبو محمد بن أبي بكر بن حمديس الأسدي، شاعر عربي من جزيرة صقلية. ولد بسرقسطة سنة 1081/447. اتصل بالمعتمد بن عباد وخلّد معركة الزلاقة وغادر الأندلس إلى إفريقية والمغرب. كان من المجددين في شعره، وفي أشعاره يطغى طابع الوصف. له ديوان شعر خال من الهجاء. توفي سنة 1132/527 (دائرة المعارف 806/3).

(29) ابن حمديس: الديوان 168-169، ابن ظافر: البدائع 70-71، المقري: النفح 606/3.

علاقته بابن خفاجة(30) :

سكتت المصادر التي اعتمدنا في تتبع أخبار ابن وهبون وعلاقته بابن خفاجة عن تفصيل هذه العلاقة، وأشارت إلى ذكر خبرين رواهما ابن خفاجة نفسه. سنعتمد الأول في هذا المقام، والثاني عند الحديث عن وفاته. قال ابن خفاجة : «صاحبت في صدري من المغرب سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة أبا محمد عبد الجليل بن وهبون شاعر المعتمد.

وكان أبو جعفر ابن رشيق(31) يومئذ قد تمنّع ببعض حصون مرسية. وشرع في النفاق وقَطْع السبيل وإخافة الطريق. ولما حاذينا قلعته وقد احْتَمدت جمرة الهجير، وملّ الركب رسيمه وذميله، وأخذ كل منّا يرتاد مقيلهُ، اتفقنا على أنّ لا نطعم طعاما ولا نذوق مناما حتى تقول في صورة تلك الحال وذلك الترحال ما حضر. وشاء الله أن أجبل ابن وهبون فاعتذر وأخذت عفو خاطري فقلت أريض نار نزوته وأعرض بعظيم لجبته :

(الوافر)

1 . ألاَ قُـــلْ لِلمَرِيــــضِ القَلْبِ مَهْــلاً
فَإنَّ الـبُّـــفَ قَدْ ضَـــنَ الشَّفَــاءَ

2 . وَلَمْ أَرَ كَالنِّفَــاقِ شَكَــاةُ غَــرٍّ
وَلاَ كَــدَمِ الوَرِيـــدِ لَــهُ دَوَاءَ

3 . وَقَدْ دُحِيَ النَّجِيــعُ هُنَــاكَ أَرْضًــا
وَقَدْ سُمِــكَ العَــجَاجُ بِهِ سَمَــاءَ

4 . وَدِينَ بِـــهِ انحِطَاطًا بَطْــنَ وَادٍ
قَدِ اعْشَــبَ شَعْــرُ لِحْيَتِــهِ ضَــرَاءَ(32)

فهذه الصحبة تبدو مخالفة لنظائرها، إذ أنها تأتي في أحلك فترة من فترات حكم ابن عباد وليّ نعمة ابن وهبون. وكأنّ الشاعرَ أحسّ بدنو أجله وأفول نجم صاحب الفضل عليه، فلم يعد ذلك المتفائل المولع بركوب النهر والقائل الشعر والمتمتع بملذات الحياة، بل أصبح إنسانا واجما ومصدر تهكم وتعريض.

---

(30) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح الخفاجي ولد سنة 1058/450. في عائلة ميسورة وتوفي سنة 1138/533. طرق كل أغراض الشعر وتغنى بالطبيعة وبها عرف حتى لقب بالجنان، يعدّ ديوانه من أكمل دواوين شعراء الأندلس. (دائرة المعارف 846/3).

(31) هو أبو محمد عبد الرحمان القشيري، حكم مرسية من سنة 1081/474 إلى سنة /1088 481. أودعه ابن عباد السّجن بتهمة التعاون مع النّصارى في محاصرة حصن لبيط، وقيل قتله، وقيل أبقى فكّ المرابطون أسره بعد أن استولوا على إشبيلية سنة 1091/484 ولا شيء يعرف عنه بعد هذا التاريخ (دائرة المعارف: 3/ 928-929).

(32) ابن خفاجة : الديوان 367-368، المقري : النفح : 3/ 318-319.

ب ـ علاقة ابن وهبون بذوي السلطان

ـ علاقته بابن عمّار(33) :

تشير المصادر التي بين أيدينا إلى وجود علاقة وثيقة بين الشاعر وذي الوزارتين ابن عمار. ولعلّ ذلك يعود إلى تماثل النشأة والميول. فكلاهما من أسرة فقيرة، يبحث عن المجد والشهرة في ظل بني عباد، فتم لابن عمار شرف الوزارتين بحكم ذكائه ودهائه وتمرسه بالسياسة حتى «اشتمل عليه المعتمد على الله بن عباد وأنهضه جليسا وسميرا وقدمه وزيرا ومشيرا»(34)، ولابن وهبون شرف القلم والكلمة حتى غدا شاعر بلاط ابن عباد الرسمي.

وحاول ابن عمّار أن يختصّ بابن وهبون «فأعلقه بدولته وألحقه بجملته، ونفّقه بعد الكساد وطوّقه من استخلاصه ما أغاظ به الحساد، وكان يعتقد تقدمه ويعقد بنواصي الشعراء قدمه»(35). وتعود جذور هذه العلاقة إلى تلك القصيدة التي ردّ بها على قصيدة ابن سراج بأمر من أستاذه الأعلم الشنتمري والتي «لما سمعها ابن عمار خادم الدولة يرمئذ طار بذكره وأجناه ثمارها وباهى به أنمارها وخلع عليه أصائلها وأسحارها»(36) و«عرفه بالمعتمد حتى استخلصه لنفسه وأحضره مجالس أنسه»(37). وإن كان بعضهم يرى عكس ذلك فهو «لم يوصله عند المعتمد إلى حظ ولم ينله منه إلا كرة لحظ»(38)، ذلك أنّ ابن عمار «كان لا يألو جهدا في وضع العقبات أمام صديقه الشاعر، لكي لا يلتقي بالمعتمد خشية ما يمكن أن يكون لهذا اللقاء من نتائج في توثيق علاقة ابن وهبون بالملك وزيادة نفوذه لديه»(39).

ونحن لا نطمئن كثيرا إلى هذه الرواية الثانية بدليل أن ابن وهبون بقي وفيا «صديقا»(40) و«صاحبا»(41) لابن عمار، حتى اعتبره بعضهم «صنيعته»(42). فقد «كان متعصبا مائلا إليه، إذ كان الذي جذب بضبعه ونوّه بذكره ونفّق من شعره»(43).

---

(33) هو ذو الوزارتين أبوبكر محمد بن عمار المهري الأندلسي الشلبي، ولد سنة 1030/422 في أسرة فقيرة من أصل يمني. اتصل سنة 1033/445 بالمعتمد ومدحه فأعجب به وقربه وأنهضه جليسا وسميرا وقدمه وزيرا ومشيرا، ثم خلع عليه خاتم الملك ووجهه أميرا. فحاول الاستئثار بمرسية فقتله المعتمد بيده سنة 1086/ 479 (انظر ابن خلكان: الوفيات 425/4 ودائرة المعارف: 3/ 727-728.

(34) ابن خلكان : الوفيات : 425/4.

(35) ابن خاقان : القلائد : 278.

(36) ابن بسام : الذخيرة : ق 2، م 1 / 475.

(37) المصدر نفسه : 431.

(38) ابن خاقان : القلائد : 278.

(39) خالص : مجلة : 542/12.

(40) المراكشي : المعجب : 103 وعنان : دول : 427.

(41) ابن خلكان : الوفيات : 426/4

(42) ابن سعيد : المغرب: 391/1

(43) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 / م 1 / 431.

ومهما اختلفت الروايات واجتهدنا في ترجيح هذه على تلك، فإنّنا نعتبر شعره الفيصل في ذلك. فقد دلّ على أنّ العلاقة بين الرجلين كانت وثيقة، فقد خصه بقصيدة مدحية(44) لا تقل قيمة عن مدائحه في ابن عبّاد، وبمرثيّة(45) حين قتله المعتمد غاضبا عليه وحانقا.

فلولا اعتراف ابن وهبون بفضل ابن عمار ووفائه لهذه العلاقة التي ربطت بينهما ما كان ليجرؤ على رثائه في حزن ومرارة وفي تقيّة واحتراز، مَخَافَةَ أن يحفظ صدر ابن عباد ويغيظه وقد أجهز على وزيره بيده.

ولم تكن هذه العلاقة أحادية الجانب، فكلا هما كان يعترف للآخر بالفضل، ذلك أن ابن عمار «كان كلما مرّ ذكر عبد الجليل ألقى بيديه وشهد له بالفضل عليه»(46).

ـ علاقته بابن صُمادح(47):

بدأت شهرة ابن وهبون تجتاز حدود إشبيليّة بعد أن أجازه شيخه الأعلم الشنتمري، وشهد له بالفضل ذو الوزارتين ابن عمار، واشتمل عليه بلاط ابن عباد كما سيرد ذلك في علاقته به. فصادف أن اجتاز يوما بالمرية(48) فحاول ملكها استطابه وبعث فيه وفتأخر وزرى بالحال وسخر وقال: أبَعْدَ المعتمد أحضر منتدى أو استمطر جودا أو ندى، وهل تروق الأعياد إلاّ في فنائه، أو تحسن الأمداح الاّ في سَنائه(49) وهو ـ أي المعتصم ـ « يومئذ قبلة الآمال وقطب رحى الآمال ومرمى جمار المدائح... اهتزّ لعبد الجليل وعرض له بجملة وافرة من عرض دنياه فلم يعرّج على صفده »(50). وهكذا لم يشأ ابن وهبون أن يكدّر صفو علاقته بابن عباد بربط صلة مدحية بابن صمادح. ولما دنا العيد بادر بالارتحال عن بلده. وقال في ارتحاله(51) يتشوق إلى ابن عباد.

ـ علاقته بابن عبّاد(52).

لا إشارة فيما بين أيدينا من مصادر إلى تحديد الفترة التي تم فيها اللقاء بين الشاعر وابن عبّاد. وإنّما يمكن أن نؤكد أنّ ذلك تم قبل وفاة أستاذه الأعلم الشنتمري سنة 1083/476 إذ هو الذي فسح له المجال للرد على قصيدة ابن سراج، فنظم ابن وهبون البائيّة في مدح ابن عباد، فطار ابن عمار خادم الدولة بذكره ووافق من المعتمد ناقدا بصيرا وعاشقا قديرا،

---

(44) انظر القطعة : 4.

(45) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 / م 1 / 434-435.

(46) ابن بسام : الذخيرة ق 2 / م 1/ 434-435.

(47) هو أبو يحيى محمد بن معن بن محمد بن أحمد بن صمادح المنعوت بالمعتصم التجيبي صاحب المرية من بلاد الأندلس ت. سنة 1091/484 بالمرية [ابن خلكان الوفيات : 39/4].

(48) المرية : مدينة محدثة، أمر ببنائها أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمان بن محمد سنة 955/344 من أشهر مراسي الأندلس عليها سور حصين منيع (الحميري: الصفة 183).

(49) ابن خاقان : القلائد 280.

(50) ابن بسام : الذخيرة ق 2 / م 1 / 475.

(51) انظر القطعة 12.

(52) هو محمد بن عباد بن إسماعيل بن عباد المعتمد على الله من أسرة عربية الأصل. ولد بإشبيلية سنة 1039/431. ورث الملك عن أبيه وكان شاعرا وأديبا. توفي أسيرا في أغمات سنة 1095/488 بعد أن استولى ابن تاشفين على إشبيلية عاصمة ملكه سنة 1091/484 (السويسي: ديوان المعتمد 6).

فأغلى بتلك الأعلاق، وأقام له الدنيا على ساق»(53). وأصبح من جملة الشعراء الذي ضمهم بلاط ابن عباد(54)، وانقطع إليه انقطاعا تاما إخلاصا ووفاءً «فلم يرحل إلى ملك سواه»(55) ولاأدلّ على ذلك من رفضه لمحاولة استقطابه من قبل ابن صمادح(56).

وتوثقت العلاقة بينهما حتى استحالت صحبة ومعاشرة. فكان ابن وهبون شاعر البلاط الرسمي في إشبيلية يغدق عليه ابن عباد العطايا والهدايا(57). ويتمتع إلى جانب ذلك براتب شهري(58). ويسامر الملك وينادمه(59)، ويعرض عليه أشعاره، فمما يُرْوَى أنه «مدح المعتمد بن عباد بقصيدة فيها تسعون بيتا، فأجازه بتسعين دينارا فيها دينار مقروض.

فلم يعرف العلة في ذلك إلى أن تأملها وإذا هو قد خرج من العروض الطويل في بيت إلى العروض الكامل فعرف حينئذ السبب(60).

ولم تقف هذه العلاقة عند هذا الحد من الامتاع الذي شغل جانبا من حياة ابن عباد وشاعره الرسمي، بل إنّ الامر جاوز ذلك إلى ما هو مصيري في حياة السلطان ودولة بني عباد آنذاك، وكانت تهدّدها أطماع النصارى من الخارج والفتن من الداخل(61). فكان ابن وهبون خير حليف ونصير لابن عباد في محنته ودفاعه عن ملكه. شاركه الحرب ضد أعدائه ووصف ركوبه البحر(62)، يستنجد بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين(63). ووصف الأسطول الإشبيلي(64)، وخلد مآثره الحربية(65). وكان من جملة مهنئيه بالفتح والنصر في معركة الزّلاّقة(66). ذكر ياقوت أنه لما دخل ابن عباد اشبيلية جلس للناس وهُنّئ، بالفتح وقرأت القُرّاء، وقامت على رأسه الشعراء، فأنشدوه، قال عبد الجليل بن وهبون حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشده إيّاها فقرأ القارئ «إلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ» (67)، فقلت بُعْداً لي ولشعري. والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به»(68).

---

(53) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 / م 1 / 475.

(54) السويسي : ديوان المعتمد : 10.

(55) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 / م 1 / 475.

(56) انظر الهامش 1 ص 27.

(57) انظر على سبيل المثال لا الحصر القطع 39، 41، 47.

(58) انظر القطعة 19.

(59) انظر القطعة 32.

(60) السلفي : الأخبار : 19.

(61) الحميري : الصلة : 83.

(62) انظر القطعة 26.

(63) هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني أمير المسلمين توفي سنة 1106/500 (ابن خلكان : الوفيات: 112/7).

(64) انظر القطعة 36.

(65) انظر على سبيل المثال لا الحصر القطعة 45.

(66) وقعت هذه المعركة سنة 1086/479 بين جيش المسلمين المتكوّن من الأندلسيين والمرابطين وبين النصارى بقيادة ألفونسو السادس (النفح: 370/4).

(67) سورة التوبة ، الآية 40.

(68) ياقوت : معجم البلدان 518/1.

وهكذا تكون علاقته بابن عباد مخالفة لنظائرها مع غيره من ذوي السلطان. فقد انقطع إليه ولازمه وتغنى بأمجاده وبطولاته، وخلّد جانبا من حياته فرضته عليه أحداث العصر، الذي شهد انحلالا سياسيا غذاه الصّراع الداخلي على السلطة من جهة والأطماع الخارجية التي تسعى إلى محو الذات العربيّة في الأندلس من جهة أخرى.

4 . ابن وهبون «الإنسان» من خلال أخباره:

لم يُوصلنا البحث والتقصّي لأخبار الشاعر في المصادر التي ترجمت له، وذكرت أخباره إلى استجلاء صورة متكاملة عن حياته في طورها الأول في مسقط رأسه مرسية. فكان بحق رجلا مغمورا. وقد عزّا بعضُ الدارسين المحدثين ذلك إلى انتسابه إلى أسرة فقيرة متواضعة.

وكنّا نروم أن تتضح معالم حياته وشخصيته في طورها الثاني في إشبيلية «بيت شرفه المشهور ومسقط عيشه المشكور»(69). فكاد التقصي لأخباره يوصلنا إلى ما أوصلنا إليه في طور حياته الأول، غير أنه أوقفنا على بعض الإشارات والومضات كشفت لنا حجاب الستر عن بعض الجوانب من شخصية ابن وهبون الإنسان في الطور الثاني من حياته في إشبيلية. فارتأينا أن نقسمها إلى محورين حتى تكون معالم شخصيته أكثر وضوحا وتكاملا.

أ . صفاته :

أجمعت بعض المصادر التي ترجمت له على أنه كان كبير الرأس عظيمه حتى عرف بالدمغة(70). وقد جاء في لسان العرب «دمغه دمغا: شجّه حتى بلغت الشجة الدماغ،.. ودميغ الشيطان نبز رجل من العرب كان الشيطان دمغه(71)»، ويبدو من هذا التحديد أنّ لقب الدّمغة كان يلمز به ابن وهبون سخريّة وتهكّما.

وتنضاف إلى هذه الصفة صفتان ذكرهما ابن خفاجة : تتمثل الأولى(72) في كونه كان كثير التطير، والثانية في عظم لحيته(73).

والمتتبع لعلاقاته بذوي السلطان والجاه وشعراء عصره، يلاحظ أنه كان طموحا راغبا في الشهرة المادية والأدبية. وقد تجشم في سبيلها عناء الرحلة ومشاقها من مرسية إلى إشبيلية.

ولئن أكّدت بعض المصادر على عودته السنويّة إلى مسقط رأسه لتعهد أهله، فإنها سكتت عن الحديث عن امكانية زواجه أو عقبه، مما حدا بنا إلى استنتاج أنه كان غير راغب في المرأة، وأنها لا تحتل في قلبه منزلة. ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه خلو أشعاره تقريبا من ذكر امرأة بعينيها والتغزل بها كما يفعل غيره من الشعراء.

---

(69) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 / م 1 / 474.

(70) الذخيرة : 479/1/2.

(71) ابن منظور : اللسان 1، 1012.

(72) ابن خفاجة : الديوان 135.

(73) ابن خفاجة : المصدر نفسه 367.

ب ـ أخلاقه وميوله :

بدا ابن وهبون ـ الذي عرفناه في مرسية خامل الذكر محروما ـ في إشبيلية ميّالا إلى التنزه(74) والتمتع بجمال الطبيعة صحبة أصدقائه في ساعات الفراغ، كما بدا كلفا بالتمتع بملذات الحياة(75) التي لم تتوفر له في مسقط رأسه أثناء نشأته الأولى، فحاول أن يسرق من الدهر لحظات تعويضا عن حرمانه السّابق.

وما كان جانب اللّهو والمتعة بقادر على احتوائه والسيطرة على أخلاقه وميوله، بل كان ابن وهبون شديد التعلق بموطنه دائم الحنين إليه(76) وفيّا لكل من ربطته به علاقة درس وعلم(77) أو صداقة(78) أو نعمة وفضل(79) غيورا على عروبته وإسلامه(80).

5 ـ وفاة ابن وهبون:

تضاربت الروايات في مصادر البحث ومراجعه في تحديد سنة وفاة الشاعر : فمنها ما أشار إلى أنها تمت سنة 1078/480(81) بدون تعليل، ومنها ما أكد أنها كانت سنة 1090/483 (82) اعتمادا على خبر رواه ابن خفاجة (83)، ومنها ما قدّر أن تكون سنة 1091/484(84)، ومنها ما ارتأى ان تكون بالضرورة سابقة لوفاة ابن خفاجة(85).

وأمام هذا التضارب بين التّواريخ حاولنا ترجيح واحد منها معتمدين على خبر رواه ابن بسام اذ قال «ولمّا ابتدأت الفتنة بالمعتمد، بادر الخروج عن البلد، فلم يغن عنه نفاره وأدركه مقداره على قرب من مرسية. لقي قطعة من خيل النصارى فتورط فيهم وقُضي له بالشهادة على أيديهم»(86)...

والثابت تاريخا أن ابن تاشفين «وصل إلى إشبيلية وبها المعتمد فحاصره أشد محاصرة وظهر من مصابرة المعتمد وشدة بأسه وتراميه على الموت بنفسه ما لم يسمع بمثله والناس بالبلاد

---

(74) دائرة المعارف : 806/3.

(75) انظر علاقته بابن القبطرنة ص 48.

(76) الذخيرة : 475/1/2

(77) انظر علاقته بالأعلم الشنتمري ص 47.

(78) انظر علاقته بشعراء عصره ص 47.

(79) انظر علاقته بابن عمار وابن عباد ص 51 و ص 52.

(80) انظر على سبيل المثال لا الحصر التقع 20، 26، 45.

(81) الضبي : البغية 375، ريان دحية : المطرب 118، وغرسي: الشعر الأندلسي 24.

(82) ابن خاقان : القلائد 267، وابن ظافر: البدائع 376 وفروخ : أدب 664/4.

(83) ابن خفاجة : ديوانه : 135-136.

(84) ابن بسام : الذخيرة ق 2/م1/475-477، والسعيد: الشعر 293، وخالص: مجلة 556/ 12، ودائرة المعارف 988/3.

(85) البستاني : دائرة البستاني : 142/4.

(86) ابن بسام : الذخيرة ق 2 / م 1 / 476.

قد استولى عليهم الفزع وخامرهم الجزع يقطعون سبلها سباحة ويخوضون نهرها سباحة ويترامون من شرفات الأسوار فلما كان يوم الأحد العشرين من رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة هجم عسكر الأمير يوسف البلد وشنوا فيه الغارات ولم يتركوا لأحد شيئا وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأيديهم وقبض على المعتمد وأهله»(87).

وهكذا نلاحظ أنّ ابن وهبون قتل بعد فراره من إشبيلية عندما حاصرها المرابطون. وبذلك تكون وفاته سنة 1091/484 أو قبلها بقليل.

(يتبع)

(87) ابن خلكان : الوفيات 30/4.

ابن مرج الكحل : حياته وشعره
(القسم الثاني)*

الأستاذ : مصطفى الغديري
كلية الآداب ـ وجدة

= 1 =

قال في ذمّ الجهل : (طويل)

1 ـ عَجِبْتُ لِمَنْ يَرْجو مَتابًا لجاهلٍ — وما عِنْدَهُ أنّ الذُّنوبَ ذُنوبُ
2 ـ إذا كانَ ذَنْبُ المرْءِ لِلمَرْءِ شيمةً — ولم يَرَهُ ذَنْبًا فكيفَ يَتوبُ

التخريج :ـ الذيل والتكملة : 113/6

= 2 =

وقال في مدح أبي عبد الله محمد بن عياش التجيبي : (طويل)

1 ـ إذا ما ابنُ عيّاشٍ تدانى محلُّه — فلا عيشَ إلاّ وَهْوَ فيه خَصيبُ

ومنها :

2 ـ كَريمُ السّجايا أريحيٌّ سَمَيْدَعٌ — أغَرُّ طليقُ الراحتَيْنِ وهُوبُ
3 ـ تَبَوّأَ مِن دارِ الخِلافةِ رُتْبةً — أقامَ بِها كَيْوانُ وهو مُريبُ

ومنها :

4 ـ وَحَسْبِيَ مِن فَخْرٍ رأنْتَ مُقَلِّدٌ — مَقالَكَ عَنّي إنّهُ لأديبُ

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 65
ترجمة الممدوح في فقهاء مالقة : 64 ـ 65، وزاد المسافر : 136، إعتاب الكتاب : 230
التكملة : 230/1.

(*) انظر القسم الأول في دراسات أندلسية، عدد 9 ص 32.

= 3 =

وكتب إلى الشاعر الزاهد أبي بكر يحي التُّطيلي بقصيدة منها : (مديد).

ـ لأبي بكر التطيلي بِـــرٌّ　　　يَتْبَعُ الإِخْوانَ شَرْقًا وغَـربـــا

التخريج : ـ المغرب : 450/2 ، وترجمة التطيلي في المصدر نفسه.

= 4 =

جاء في زاد المسافر : اجتمع ابن حريق وابن مَرْج الكُحل في مجلس أحد الوزراء والمرج ينشد قصيدة يقول في عجز بيت منها : «وكذا كُلُّ جزيريِّ النَّسَبْ» فقال ابن حريق : «ويَابِسُ الراحَةِ مَبْلولُ الذَّنَبْ»

التخريج : ـ زاد المسافر : 134 المغرب : 320/2 وترجمة ابن حريق في زاد المسافرين : 64

الرواية : ـ في المغرب «هكذا كل ... »

= 5 =

وله يتغزّل : (كامل) :

1 ـ يَا نظرةً أودتْ بِحُسْنِ شبابِـــي	وقَضَى عَلَيَّ نَعيمُهَا بِعَـــــذَابِ
2 ـ مَا كُنْتُ أَحْسَبُ نَظْرَةً من نَضْرَةٍ	تَقْضِي عَلَى مُشْتَاقِهَا بِمتَـــابِ
3 ـ يا شَادِنًا عَيْنَاهُ تَفْعَلُ بالنُّـــهى	ما تَفْعَلُ الصَّهْبَاءُ بِالأَلْبَـــابِ
4 ـ لَوْ ذُقْتَ مَا ذُوِّقْتُ مِنْ أَلَمِ الهَوَى	لَعَلِمْتَ قَدْرَ الشَّوْقِ لِلأَحْبَـــابِ
5 ـ إِنِّي لأَعْجَبُ مِنْ عِتَابِ عَوَاذِلي	جَهْلاً، عليكَ، وما يُفِيدُ عِتَابِـــي
6 ـ قَلْبي يَرَى أَنْ لاَ سُلُوَّ مِنَ الهَوَى	رَضِيَ الذي يَلْقَى مِنَ الأَوْصَـــابِ
7 ـ يَا عَاذِلي ما تَضُرُّكَ شِقْوَتِي	القَلْبُ قَلْبِي والعَذَابُ عَذَابِـــي

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 74، ـ مختارات من الشعر المغربي والأندلسي : 225 ـ 226.
الرواية : 1 ـ في مختارات من الشعر المغربي «بشرخ شبابي»

= 6 =

وكتب على حائط مسجد، وكان قد جلس فيه يسيرا وهو في طريقه إلى منتزهات مرسية مع جملة من أصدقائه : (مخلع البسيط).

يَعْمُرُكَ النَّاسُ في سُجـــــــــودِ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وفي رُكوعٍ وفي قُنـــــــوتِ

التخريج : ـ تحفة القادم : 225.

= 7 =

ومما كتب به إلى أبي بحر صفوان بن إدريس قوله : (طويل)

1 ـ (سَقَى سَوْرَةَ الوادي السَّحابُ العَوابِثُ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وإنْ غَيَّرتْ منِّي الليالي الفَرائِثُ)
2 ـ عَذيري من الآمالِ خَابَتْ صُقُـــورُها ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ونالَتْ جَزيلَ الحَظِّ منها الأَبَاغِـثُ
3 ـ وقالوا ذَكَرْنا بالغِنَى فأَجَبْتُهـــــــم ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ خُمولاً ولا ذِكْرٌ مع البُخْلِ لابِـثُ
4 ـ يَهُونُ عليكَ أنْ يَبيدَ أثاثُـنـــــا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وتبقى علَيْنا المَكْرُماتُ الأَثائِـــثُ
5 ـ وما ضرَّ أصلاً طيِّبًا عَدَمُ الغِنـــى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ إذا لَمْ يُغَيِّرْهُ مِنَ الدَّهْرِ حـــادِثُ

ومنها يعتب :

6 ـ وَهَلْ عِنْدَ صَفْوانَ بن إدْريسَ أنَّني ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ مُقيمٌ على عَهْدِ المَوَدَّةِ ما كـــثُ
7 ـ وإنْ كنتَ قد خاطَبْتَ نَصْلَ خِطابِه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فعاقَتْ الردَّ الخُطوبُ الكَـــوارِثُ

التخريج : ـ زاد المسافر : 69 - 70، فقهاء مالقة : 75، الإحاطة : 346/2، النفح : 53/5، الإعلام : 197/4-198

الرواية : 1ـ لم يرد إلا في فقهاء مالقة

2 ـ في فقهاء مالقة والإحاطة والنفح والإعلام «عذيري من الأيام» وفي الإحاطة والنفح والإعلام «خابت قصودها»

3 ـ في زاد المسافر والإحاطة والنفح «مع البخل ماكث» ورجحت رواية فقهاء مالقة تجنبا للإيطاء في البيت السادس.

4 ـ في فقهاء مالقة : «أن تبيد» وجاء في الترتيب بعد البيت الخامس، وفي الإحاطة «والمكرمات الأثابت» ويبدو أنها من أخطاء هذه النشرة.

5 ـ في فقهاء مالقة «وما ضرخلا».

6، 7 ـ لم يردا في الإحاطة والنفح والإعلام، وفي فقهاء مالقة «مقيم على حفظ المودة».

= 8 =

وله أيضا في الغزل : (طويل)

1 ـ سَرَوْا يَخْبِطون الليلَ والليْلُ قَدْ سَجا   وعَرْفُ ظَلامِ الأُفقِ منْهُ تَأرَّجـــا
2 ـ إلى أنْ تَخَيَّلْنا النُّجومَ التي بَــدَتْ   به يا سَمِينًا والظَّلامُ بَنَفْسَجـــا
3 ـ وممّا شَجاني أنْ تألَّقَ بـــــارِقٌ   فَقُلْتُ فُؤادي خافِقًا مُتَوَهِّجـــا
4 ـ وَشِيبَ بياضُ القَطْرِ مِنْهُ بِخُضْـرةٍ   فأذكرني ثَغْرًا لِـسَلْمى مُفَلَّجـــا
5 ـ أمائِـــلَةَ الأعطافِ مِنْ غَيْرِ خَمْـرةٍ   بِأسْهُمِها تُصْمي الكَمِيَّ المُدَجَّجــا
6 ـ أأنْتَ التي صَيَّرْتَ قَدَّكِ مائِـــــا   وَعِطْفَكِ مَيّادًا وَرِدْفَكِ رَجْرَجـــا
7 ـ وأغْضَبَكِ التَّشْبيهُ بالبَدْرِ كامِـــلاً   وبالغُصْنِ مَرْكُوماً وبالظَّبْيِ أدْعَجا
8 ـ وقَلْبِ شَجٍ صَيَّرْتِهِ كُرَةً وَقَـــدْ   أجَلْتِ عَلَيْهِ لامَ صُدْغِكِ صَوْلَجـــا
9 ـ فَلا رَحَلَتْ إلاّ بِقَلْبي ظَعينَـــةٌ   ولا حَمَلَتْ إلاّ ضُلوعي هَوْدَجـــا

التخريج : ـ المغرب : 374/2.

= 9 =

وقال في بلدة شقر : (وافر)

1 ـ سَقَى اللّهُ الجزيرةَ من مَحَـــلٍّ   فَقَدْ حَسُنَتْ لقاطنها مراحـــــا
2 ـ وَطافَ بها طَوافَ الصِّلِّ نَهْــرٌ   كما أبْصَرْتَ في خَصْرٍ وِشاحـــا
3 ـ وَرُبَّ عَشِيَّةٍ فيه طَفِقْنـــا   نَرودُ الظِّلَّ والماءَ القَراحـــــا
4 ـ وقَدْ ضَرَبَ الضَّريبُ بها قِبابـــا   على الأدْراحِ أبْهَجَتِ البِطاحـــا
5 ـ وكانَ جنابُها يَخْضَرُّ أُنْـــسًا   فأصْبَحَ وهْوَ مُبْيَضٌّ أقاحـــــا
6 ـ كأنَّ الخِضْرَ مرَّ بِهِ يَمينـــــًا   ومدَّ عَلَيْهِ جِبْريلُ جَناحـــــا

التخريج : فقهاء مالقة : 72

وفي البيت السادس إشارة إلى الخضر صاحب سيدنا موسى عليه السلام، وصاحب الكرامات كما جاء في سورة الكهف ابتداء من آ : 64

= 10 =

وقال في الإضافة إلى بيتين أنشدهما له ولأصحابه أحد الأطبّاء بإشبيلية : (مجزوء الرمل)

إن أتَيْتُم نَفَــــــــرادى   ذاك حُكْمُ المُتَـــــــراح

التخريج : ـ النفح : 595/3. والبيتان المضاف إليهما هذا البيت يوجدان في المصدر نفسه

= 11 =

وقال أبو الحسن الرعيني : أنشدني بلفظه لنفسه : (كامل)

1 ـ وعشيّةٍ كانَتْ قَنيصَةَ قَنْبَـــــــةَ ... ألفوا منَ الأدَبِ الصَّريحِ شُيُوخـا
2 ـ فكأنّها العَنْقاءُ قَدْ نَصَبُوا لهـــا ... مِنَ الانْحنَاءِ إلى الوقوعِ فُخوخـا
3 ـ شَمِلَتْهم آدابُهم فَتَجاذَبـــوا ... سِرَّ السُّرورِ مُحَدِّثًا ومُصيخـا
4 ـ والوَرْقُ تقرأُ سورةَ الطَّرَبِ التـي ... يُنْسيكَ منْها ناسِخٌ مَنْسوخـا
5 ـ والنَّهْرُ قَدْ طَفَحَتْ به نَارَنْجَـــةٌ ... فتَيَمَّمَتْ مَنْ كان فيه مُنيخـا
6 ـ فَتَخالُهم خَلَلَ السَّمَاءِ كَواكِبـاً ... قَدْ قارنت بسعودها المِرّيخـا
7 ـ خَرَقَ العَوائِدَ في السُّرورِ نَهارُهـم ... فجَعَلْتُ أَبْيَاتي لَهُ تاريخـا

التخريج : ـ برنامج شيوخ الرعيني : 208، تحفة القادم : 117، الذيل والتكملة : 112/6، الإحاطة : 354/2، النفح : 52/5، الإعلام : 197/4

الرواية : 2 ـ في الإحاطة والنفح والإعلام «فكأنما العنقاء»

5 ـ في التحفة والإحاطة والنفح والإعلام «قد صفحت به نارنجة» وفي الذيل «قد طمحت به نارنجة»

= 12 =

وقال في الرد على أبي حريز محفوظ بن مرعي الشريف : (طويل)

1 ـ فَيَا عَجَبًا ما للشّريفِ يذُمُّنـــي ... ويُبْغِضُني حتى كأنّيَ مَسْجِـــدُ
2 ـ ولا عَيْبَ عندي غَيْرَ أنّيَ مُسْلِـمٌ ... وأنَّ اسْمِيَ اسْمُ الهاشِمِيِّ مُحَمَّـــدُ

التخريج : زاد المسافر : 125

= 13 =

وقال يمدح الكاتب ابن عيّاش: (طويل)

1 ـ سَرَى الطيفُ من أسْماءَ والنَّجْمُ راكدُ ... ولا جَفْنَ إلاّ وهو في الحقِّ راقدُ

2 ـ شَفَى ألمًا لمَا ألمّ بِمَضْجَعِـــــي ... وبت يُدانيني وكَانَتْ تَباعَـــدُ

3 ـ ألمّ على رَغْمِ الرّقِيبِ، وَدُونَنَـــا ... عنى عَدْوان الدّهْرِ بِيدٌ فدَافـــدُ

4 ـ سَقَى عَهْدَهَا عَهْدُ السّحابِ، ولمْ يَكُنْ ... عَنَى العَهْدِ لولا (   ) المعَاهِدُ

5 ـ مَعَاهِدُ تُذْكِي حُرْقَةَ الكَبِدِ الّتِـــي ... تُكَابِدُ من آلامِها مَا تُكَــابِدُ

6 ـ كأنّ بِها الغُدْرانَ زُرْقٌ نَوَاظِــــرٌ ... بِها الطّلّ كُحْلٌ والغُصونُ مَـراوِدُ

7 ـ أُعَلّلُ بالآمالِ نَفْسًا عَليـــلَةً ... تُكَسّرُ للآمالِ مِنْها مَـــوارِدُ

ومنها :

8 ـ إِلَيْكُمْ بإيلامِ المَلامِ، فَمَنْعِـــي ... كتب أبْنِ عَيّاشٍ، وَتِلْكَ حَقَائِـــدُ

9 ـ إمامُ البَرَايَا في بَلاغَتِهِ الّتِـــي ... يُقِرّ لَها بِالعَجْزِ مَنْ هُوَ جَـاحِدُ

ومنها :

10 ـ ومن عَجَبِي أنْ تَرْحَلَ الشّمْسُ ذَائِبًا ... وَمِثْلِيَ في مِثْلِ الجَزِيرَةِ قَـاعِدُ

11 ـ إذا لم يُلائِمْنِي مَكانٌ أَلِفْتُـــهُ ... فَكُلّ مَكانٍ مِثْلُهُ لِيَ فَـــاقِدُ

12 ـ ولَسْتُ كَقَوْمٍ أضْمَرَتْهُم بِلادُهُـــمْ ... أُولَئِكَ مَوْتَى والبِلادُ مَلاحِــدُ

13 ـ ولَوْ لمْ يَكُنْ أصْلِي، وحَاشَاهُ، مَاجِدًا ... كَفَى الفَرْعَ مِنّي أنّهُ اليَوْمَ مَـاجِدُ

ومنها :

14 ـ وقال حَسُودِي أيْنَ إرثُكَ مِنْهُـــمُ ... فَقُلْتُ لَهُمْ إنّ الأكارِمَ نَـــافِدُ

15 ـ إذا لم يُفِدْكَ المَالُ حَمْدًا مُؤبّــدًا ... فَليتَ شِعْرِي مَا تَكُونُ الفَوائِــدُ !

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 74 ـ 75، مختارات من الشعر المغربي والأندلسي : 226 (ورد فيها الأبيات الخمسة الأولى فقط).

وابن عياش سبقت الإشارة إلى مصادر ترجمته (انظر قطعة رقم : 2)

الرّواية : 4 ـ في الشطر الثاني سقط ظاهر لا يستقيم معه الوزن.

= 14 =

وله أيضا : (طويل)

1 ـ وكُنْتُ أظُنّ الحُبّ بالضّدّ للقِلَـــى ... ولم أعْتَقِدْ أنّ الوِلايَةَ ضِـــدّهُ

2 ـ فلا تَطْلُبُوا مِنْ عِنْدِ والٍ مَـــوَدّةً ... ألا رُبّ والٍ قدْ تَغَيّــرَ وِدّهُ

3 ـ فإنْ شِئْتُمْ خِلاً لِشُكْرٍ مُغَرّـــدٍ ... فَلا تَضْرِبُوهُ فَالوِلايَةُ حَــدّهُ

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 73.

= 15 =

وقال في إجازة صديقه صفوان بن إدريس : (مخلع البسيط)

ـ فأنْتَ في القلبِ في السُّويـــــدا وأنْتَ في العيْنِ في الســـــوادِ

التخريج : ـ زاد المسافر : 35، الذيل والتكملة : 116/6، الإعلام : 204/4.
ـ وبيت أبي بحر صفوان بن إدريس في المصادر نفسها.

= 16 =

دخل ابن مرج الكحل رث الحالة على الأستاذ ابن طلحة فتكلم مع أحد الطلبة فزجره الأستاذ وزجر الطالب، فارتجل هذين البيتين ودفعهما إليه وهما : (كامل)

1 ـ بأبي رشأ هامَ الفؤادُ بحبِّـــــهِ وتقطَّعتْ من لوعةٍ أفــــلاذُهُ
2 ـ شَغَفَ البريَّةَ كُلَّها بجمالـــــهِ وأشدُّهُمْ شَغَفًا بِهِ أسْتـــــاذُهُ

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 72
ـ ترجمة ابن طلحة في المغرب لابن سعيد : 364/2 رقم 577. واختصار القدح المعلى : 114، وتحفه القادم : 222، المقتضب : 209.

= 17 =

ومما ضمن رسالته إلى صفوان بن إدريس قوله : (طويل).

ـ حَديثٌ لو انَّ الميت نودي بِبَعْضِـــهِ لأصْبَحَ حَيًا بَعْدَمَا ضَمَّهُ القَبْــــرُ

التخريج : ـ نفح الطيب : 58/5

= 18 =

قال في عشية بنهر الغنداق من خارج بلد لوشة (كامل)

1 ـ عرِّج بمنعرج الكثيب الأعفر   بين الفرات وبين شط الكوثر
2 ـ ولتغتبقها قهوة ذهبيـــــة   من راحتي أحوى المدامع أحور
3 ـ وعشية كم كنت أرقب وقتها   سمحت بها الأيام بعد تعذر
4 ـ نلنا بها آمالنا في روضـــة   تهدي لناشقها شميم العنبر
5 ـ والدهر من ندم يسفه رأيـــه   فيما صفا منه بغير تكدر
6 ـ والورق تشدو والأراكة تنثنـي   والشمس ترفل في قميص أصفر
7 ـ والروض بين مذهب ومفضض   والزهر بين مدرهم ومدنـر
8 ـ والنهر مرقوم الأباطح والربـا   بمصندل من زهره ومعصفر
9 ـ (وكأنه وكأن خضرة شطه   سيف يسل على بساط أخضر)
10 ـ وكأنما ذاك الحباب فرنــده   مهما طفا في صفحه كالجوهر
11 ـ وكأنه وجهاته محفوظـــة   بالآس والنعمان، خد معذر
12 ـ نهر يهيم بحسنه من لم يهـم   ويجيد فيه الشعر من لم يشعر
13 ـ ما أصفر وجه الشمس عند غروبها   إلا لفرقة حسن ذاك المنظر

التخريج : ـ برنامج شيوخ الرعيني : 209، فقهاء مالقة : 73 ـ 74، سرور النفوس : 50، تحفة القادم : 82 المقتضب من تحفة القادم 114، المغرب : 373/2، رايات المبرزين : 123، المقتطف : 108 (لم يرد فيه إلا بيتان : 12، 13)، الذيل والتكملة : 111/6، الإحاطة : 343/2، النحر والشعر : 102 (ورد فيه البيتان : 13،12) نفح الطيب : 51/5، أزهار الرياض : 315/2، الإعلام : 196/4.

الرواية :

1 ـ لم يرد في الرايات، وفي سرور النفوس «وبين شاطي الكوثر».

2 ـ لم يرد في الرايات وسرور النفوس، وفي فقهاء مالقة «ولنغتبقها» وفي الإحاطة «ولنغتبقها»، وفي الإحاطة والنفح وأزهار الرياض «أحوى المراشف».

3 ـ في المغرب والرايات «كم بت أرقب»، وفي سرور النفوس «قد بت أرقب»، وفي الإحاطة «قد كنت أرقب».

4 ـ في المغرب والرايات «نلنا بها ... في جنة أهدت»، وفي سرور النفوس وتحفة القادم والمقتضب والذيل «نسيم العنبر».

5 ـ لم يرد في المغرب والرايات، وفي سرور النفوس «فيما صفا من عيشه المتكدر»، وفي الإحاطة والنفح وأزهار الرياض والإعلام «فيما مضى».

6 ـ في فقهاء مالقة والمغرب والرايات والنفح «بين مفضض ومذهب»، وفي أزهار الرياض «بين مفضض ومعسجد»، ورد هذا البيت في المغرب والرايات مقدما على البيت السادس.

7 ـ لم يرد في المغرب والرايات، وفي سرور النفوس «والنهر مصقول الأباطح».

8 ـ لم يرد في برنامج الرعيني والرايات، وفي سرور النفوس «... وكأن خضرة بسطه».

9 ـ لم يرد في المغرب والرايات، وفي سرور النفوس «مهما صفا».

10 ـ لم يرد في المغرب والرايات، وفي سرور النفوس «وكأنما وجناته».

11 ـ في هذا البيت تضمين لبيت أبي جعفر عبد الله بن جرج الكاتب قوله :

أمّا ذُكاءُ فلم تَصفَرّ إذ جنحـــــتْ   إلاّ لفُرقَةِ هذا المنظرِ الحسَــــنِ
(الحلة : 244/2، تحفة القادم : (8 المقتضب : 114).

= 19 =

وقال أبو الحسن الرعيني أنشدني قطعة أخرى : (كامل).

1 ـ أرأيتَ جُفونَكَ مثلَهُ من مَنْظـــرِ   ظِلٌّ وشَمْسٌ مثلُ خَدِّ مُعـــذَّرِ
2 ـ وَجَداوِلٌ كأراقمٍ، حَصبــاؤُها   كَبُطونِها، وحَبابُها كالأظهـــرِ
3 ـ وقَرارةٍ كالعَشْرِ بَيْنَ خَميلــةٍ   سالتْ مَذانِبُها بها كالأسْطُـــرِ
4 ـ فكأنّها مشكولةٌ بمُصَنْـــدَلٍ   من يانعِ الأزهارِ أوْ بمُعَصْفَـــرِ
5 ـ أملٌ بلغْتُهُ بهَضْبِ حَديقـــةٍ   قَدْ طرَّزَتْهُ يَدُ الغَمامِ المُمْطِـــرِ
6 ـ فكأنّهُ والزّهْرُ تاجُ فُرَيْقِـــهِ   مَلِكٌ تجلّى في بِساطٍ أخْضَـــرِ
7 ـ راقَ النّواظِرَ منْهُ رائقُ منْظـــرٍ   يَصِفُ النَّضارةَ عن جِنانِ الكَوْثَـــرِ
8 ـ كم قادَ خاطِرَ خاطِرٍ مُسْتَوفِـــزٍ   وكَم استَفَزّ جمالُهُ مِنْ مُبْصِـــرِ
9 ـ لولاحَ لي فيما تَقادَمَ لمْ أقـــلْ   «عَرِّجْ بِمُنْعَرَجِ الكَثيبِ الأعْفَـــرِ» *

التخريج : ـ برنامج الرعيني : 210، الذيل والتكملة : 112/6، رفع الحجب المستورة : 120 (ورد فيه البيتان : الأول والثاني)، الإحاطة : 345/2، النفح : 52/5، الإعلام : 196/4.

الرواية : 2 ـ لم يرد في الإحاطة، وعلق الرعيني على هذا البيت بقوله : «هذا التشبيه العجيب في تشبيه الجداول بالأراقم، زعم أنه لم يسبق إليه».
3 ـ في الإحاطة والنفح والإعلام «بين خميلة».
9 ـ في الذيل «فيما تظاهر لم أقل».
* هذا الشطر مطلع القطعة رقم : 18.

= 20 =

وقال أيضا : (طويل)

1 ـ ألا بشّروا بالصُّبحِ مني بَاكِـــيا   أضَرَّ مَعَ اللّيْلِ الطويلِ به البُكـــا
2 ـ فَفي الصُّبحِ للصَّبِّ المُتَيَّمِ راحَـــةٌ   إذا اللّيلُ أجرى دَمْعَهُ وإذا شَكـــا
3 ـ ولا عَجَبٌ أنْ يُمْسِكَ الصُّبحُ عَبْرتي   فَلَمْ يَزَلِ الكافورُ للدَّمِ مُمْسِكـــا

التخريج : ـ الذيل والتكملة : 115/6، الإحاطة : 347/2، النفح : 54/5، الإعلام : 203/4.

الرواية : 1 ـ لم يرد في الإعلام، وفي الإحاطة والنفح «أضربه .... مع ... وفي ... «من كان باكيا».

= 21 =

وله أيضا : (رمل)

1 ـ مَثَلُ الرِّزْقِ الذي تُطْلُبُـــــــهُ   مَثَلُ الظِّلِّ الذي يَمْشِي مَعَــــكْ
2 ـ أنْتَ لا تُدْرِكُهُ مُتَّبِعًـــــــا   فَإِذَا وَلَّيْتَ عَنْهُ تَبِعَــــكْ

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 72، التكملة : 344/1 رقم : 1005، تحفة القادم : 249، وفيات الأعيان : 396/2، الذيل والتكملة : 117/6، الوافي بالوفيات : 181/2 رقم : 535، الإحاطة : 347/2، جنة الرضا : 235/1، النفح : 34/5، الإعلام : 199/4، الأعلام للزركلي : 27/6.
الرواية : 2 ـ في تحفة القادم «وإذا وليت ....». وفي التكملة والإحاطة وجنة الرضا «أتبعك».

= 22 =

قال أبو الحسن الرعيني : ووقعت بينه وبين الكاتب أبي زكريا يحي بن إبراهيم الخدوج ـ وأنا حاضر ـ ملاحاة، خرج عليه فيها أبو زكريا لفضل حدة كانت فيه، فقام عنه وأنشده : (طويل).

1 ـ تَعَوَّدْتُ قَوْلَ الخَيْرِ في كُلِّ حَالَـــةٍ   وَمَنْ كانَ مِثْلِي فَهْوَ لِلْخَيْرِ قائِـــلُ

التخريج : ـ برنامج شيوخ الرعيني : 211
ترجمة الكاتب أبي زكريا يحيى بن إبراهيم الخدوج في المصدر نفسه 164 رقم : 86.

= 23 =

وقال في الرد على ابن مطرف (1) مساندا سهل بن مالك (2) : (مجزوء الرمل)

1 ـ إنْ دَعَوْني بِسُهَيْـــــــلْ   فَأنا حَقًّا سُهَيْـــــــلْ
2 ـ قَدْ دَعَا كُمْ مِن طُلوعِـــي   يا بَني الزَّنْيَةِ وَيْـــــــلْ

التخريج : ـ تحفة القادم : 145، المقتضب : 152.
1 ـ ترجمة ابن مطرف في المغرب : 120/2 وتحفة القادم : 143.
2 ـ ترجمة سهل بن مالك في تحفة القادم : 144 ها : 4.
الرواية : 2 ـ في المقتضب : يا بني الزناء

= 24 =

وقال في الحث على التعلم : (هزج).

1 ـ تعلّم إنْ تشـــا عِـــزا فكُلُّ جَهالةٍ ذلـــــة
2 ـ فكم باكٍ علـــــى وِزْرٍ بعَيْنٍ منهُ مُنْهَلـــــة
3 ـ وربّتما يـــــزِلُّ إذا أراد إزالةَ الزّلـــــة
4 ـ وهل تُشفى بلا علـــــمٍ نفوسٌ هُنّ مُعتلـــــة
5 ـ طبيبُ المرءِ علتـــــهُ إذا لم يعرفِ العلـــــة

التخريج : ـ الذيل والتكملة : 113/6.

= 25 =

وله أيضا : (طويل)

1 ـ دخلتم فأفسدتم قلوبا بملككـم فأنتم على ما جاء في سورة النمل
2 ـ وبالعدلِ والإحسانِ لم تتخلقـوا فلستم على ما جاء في سورة النحلِ

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 92، الذيل والتكملة : 117/6، الإحاطة : 347/2، النفح : 54/5، الإعلام : 199/3.
في البيت إشارة إلى قوله تعالى «إنّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها» (سورة النمل : 34).
وفي البيت الثاني إشارة إلى قوله تعالى : «أينما يوجهه لا يأتِ بخيرٍ» (سورة النحل : 76).
الرواية : 1 ـ في النفح والإعلام «بملكها».
2 ـ في النفح والإعلام «وبالجود والإحسان»، وفي الإحاطة والنفح والإعلام «فأنتم على ما جاء في سورة النحلِ».

= 26 =

وقال مجيبا أبا بكر محمد بن محمد بن جهور الأزدي .* : (بسيط)

1 ـ يا قائلاً إذ رأى مرجي وخضرتهُ ما كان أخرجَ هذي الأرضَ للكحَلِ
2 ـ تلكَ الدماءُ التي للرّوم قد سَفكتْ في الفتحِ ببيضِ ظُبا أجدادي الأوَلِ
3 ـ أحببتُها إذ حكتْ مَنْ قدْ كُلِفتُ بِهِ في حُمرةِ الخدّ أو إخلافِهِ أملـي

التخريج : ـ تحفة القادم : 197 ـ 198، المقتضب : 189، الذيل والتكملة :115/6، الإحاطة: 348/2، النفح : 55/5، الإعلام : 199/4.

الرواية : 1 ـ في الذيل والتكملة والنفح والإعلام «هذا المرج للكحل»

2 ـ جاء هذا البيت في الذيل والإحاطة والنفح والإعلام :

هو احمرار دماء الروم سيّلها   بالبيض من مرّ من آبائيَ الأُولِ

3 ـ في الذيل والإحاطة والنفح والإعلام «هذا المرج للكحل»

* وقصة هذه المساجلة مع أبي بكر توجد في المصادر السابقة.

= 27 =

وقال ملتزما مالا يلزم : (سريع)

1 ـ الحمد للّه على كلّ حـــالْ   بحال حلٍّ وبحال ارتحـــالْ
2 ـ بدأنا على تـــــدْوَرٍ أولا   ثُمّ يُعيدُ البَدْءَ بَعْدَ أستحـــالْ
3 ـ أرواحُنا دَيْنٌ لآجالنـــــا   وَمُلْكُ المَوْتِ عَلَيْها محـــالْ
4 ـ يقتادُنا الموْتُ وأعمارُنـــا   كأنّها العيسُ ونَحْنُ الرِّحـــالْ
5 ـ يا تاركًا أوزاره بَعـــدَهُ   باقيَةً لَمْ تَستحل واستحـــالْ
6 ـ إنّا إلى اللهِ وإنّا لـــــهُ   نُعامِلُ اللهَ بِهَذا المحـــالْ
7 ـ هَلْ يَنْفَعُ النَّفْسَ على ضَعْفِهـــا   محالُها عند شديد المحـــالْ
8 ـ لا تنتحلْ غَيْرَ التُّقى خُطّـــةً   فإنّ تقوى اللهِ خَيْرُ انْتحـــالْ
9 ـ واسْتغفر اللهَ على ما مضـــى   وجَدّدِ التَّوبَةَ في كلّ حـــالْ
10 ـ واذكُــر إذا حلّتْ بِكُمْ نادِم   لَمْ يُغْنِهِ مِنْ نَدَمٍ حينَ حـــالْ
11 ـ قَرّتْ عيونٌ شاهداتٌ لهـــا   بنُورِ مَنْ تَشْهَدُ فيه اكتحـــالْ

التخريج : ـ الذيل والتكملة : 114/6

= 28 =

ومما قاله بديهة : (وافر)

1 ـ (رأوا بالجـزْعِ بَرْقًا فاسْتهامـوا   ونـامَ العاذلونَ ولمْ ينامـوا)
2 ـ وعِنْدي عَـنْ مَعاطفها حديـثٌ   يُخَبِّـرُ أنَّ ريقَتَها مُـــدامُ
3 ـ وفي أجفانها الـكسْرى دليـلٌ   وما ذُقْنا ولا زَعَـمَ الهُمـامُ
4 ـ تعالى اللهُ ما أجرى دُموعـــي   إذا عَرَضَتْ لمقلتيَ الخيـــامُ
5 ـ وأشجاني إذا لاحَتْ بـــروقٌ   وأطربني إذا غَنّتْ حَمـــامُ

التخريج : ـ زاد المسافر : 69، فقهاء مالقة : 73، المحدّون : 204 ـ 205 رقم : 114، المغرب : 374/2، رفع الحجب : 195/1، الإحاطة : 346/2، السّحر والشّعر : 29 النفح : 53/5، أزهار الرياض : 316/2، الإعلام : 197/4.

الرواية :

1 ـ لم يرد إلا في أزهار الرياض.

2 ـ في « المحمّدون » والإحاطة والسّحر والشّعر والنفح وأزهار الرياض والإعلام « وعندي من مراشفها ».

3 ـ وفي (المحمّدون) « وفي ألحاظها السّكرى » وفي (رفع الحجب) « وفي أعطافها » وفي (المغرب) « ولاذتنا ».

4 ـ في الإحاطة والنفح « إذا عنت لمقلتي ». ولم يرد في رفع الحجب.

5 ـ لم يرد في « المحمّدون » والحجب المستورة.

= 29 =

ومما قاله أيضا : (كامل)

1 ـ لا تُنكروا في المرءِ حُبَّ رياسةٍ   حُبُّ الرِّياسة في طباعِ العالَمِ
2 ـ كُلٌّ أبوهُ آدمٌ وطِلابُهُ   إرثُ الخلافةِ في أبيه آدمِ

التخريج : ـ الذيل والتكملة : 112/6

= 30 =

وكتب إلى أبي بحر صفوان بن إدريس بهذه القطعة : (طويل).

1 ـ أعادَتْكَ من ذكرِ الأحبّةِ أشجانُ   فقلبُكَ خفّاقٌ ودَمعُكَ هتّانُ
2 ـ تَحِنُّ على شَحْطِ المزارِ إليهمُ   ومن دون لُقياهُم قفارٌ وبُلدانُ
3 ـ خليليَّ ما في الأرضِ صَفْوُ مودّةٍ   إذا لم يكُنْ يصفي المودّةَ صفوانُ (1)
4 ـ زَماني بزورٍ وهوَ بالحقِّ عالمٌ   وكلُّ كلامِ الشرِّ زورٌ وبُهتانُ
5 ـ نطقْتُ فأفحمْتُ العراقَ بلاغةً   وأخرستُ ما تحوي [عليه] خُراسانُ
6 ـ ولوْ سمعتْ سَمْعي عكاظُ بلاغتي   لما سحبَ الأذيالَ في الذكرِ سُحبانُ (2)
7 ـ ولو كُنت في جيلِ الأوائلِ لم يكُنْ   ليذكرَ بالإحسانِ في الشّعرِ حسّانُ (3)

التخريج : ـ نفها، مائة : 103. أنظر إجابة صفوان بن إدريس في المصدر نفسه ورقة : 103 ـ 104.

(1) يعني المخاطب صفوان بن إدريس

(2) يعني سحبان وائل الذي يضرب به المثل في الفصاحة، فيقال : أفصح من سحبان

(3) هو حسان بن ثابت شاعر الرسول . (صلعم).

[عليه] كلمة في الأصل غير واضحة لطمسها.

= 31 =

وقال في حسن الظن بالله عز وجل : (خفيف)

1 ـ إنَّ ظنّي بمَنْ عَصيتُ جميـلُ — أتراهُ مُعذّبي ؟ مَا أظُنُّ
2 ـ مَا أراهُ إلاَّ يَجودُ بعفـو — إنَّ قلبي بعَفْوِهِ مُطْمَئِنُّ
3 ـ حاشَ لِلَّهِ أنْ يُخَيِّبَ ظَنّي — إنَّهُ لا يَخيبُ في اللهِ ظَنُّ

التخريج : ـ الذيل والتكملة : 113/6

= 32 =

وقال مخاطبا أبا الحسن الرعيني : (وافر)

1 ـ أبا حَسَنٍ أعندكَ أنَّ عيْني — إذا مَا أبصرَتْكَ تَقَرُّ عَيْني
2 ـ مَكانُكَ في المودَّةِ من فُؤادي — مكانُكَ في السَّرارةِ من رُعَيْنِ

التخريج : ـ برنامج الرعيني : 211، الذيل والتكملة : 115/6. وعلق صاحب الذيل على البيت الأول بقوله : «أرى أن في تصريع البيت الأول إيطاء، تأمّله.

= 33 =

وله أيضا : (كامل)

1 ـ تَسلَّطُ أعدائي عليَّ لنِعْمةٍ — ولقدْ سُررْتُ فإنّهُ تمحيصُ
2 ـ قدْ كُنتُ أحْسَبُ أنّهُ لي نِعْمةٌ — لو أنّني وَحْدي بهِ مَخصوصُ

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 73.

= 34 =

وقال أيضا : (كامل)

1 ـ دَعْ عنكَ تَسطاسَ اللّسانِ وَلاَ تَزِنْ — مَنْ كُنْتَ تَحسبُ راجحًا أو ناقصا
2 ـ وإذا نَقَدْتَ فكُنْ نَحاسًا (1) — وليكنْ مَنْ كُنتَ تُبصِرهُ لجيْنًا خَالصا

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 75.
(1) في الشطر الأول سقط ظاهر لا يستقيم معه وزن البيت

= 35 =

ومن شعره أيضا : (بسيط)

1 ـ لا تُغْضِبَنَّ الذي تَرْمِيكَ أَسْهُمُهُ ... فَقَدْ جَعَلْتَ لَهُ الإِعْرَاضَ أَغْرَاضَا
2 ـ وَالْمَاءُ وَالنَّارُ بَعْضٌ مِنْ عَنَاصِرِهِ ... يَغْلِي إِذَا اتَّقَدَتْ وَرُبَّمَا فَاضَا

التخريج : فقهاء مالقة : 72

= 36 =

وله أيضا : (طويل)

1 ـ لَكَ الخَيْرُ يا مولايَ، ما العَبْدُ بِأَمْرِئٍ ... لَدَيْهِ حُسَامٌ بَلْ لَدَيْهِ يَرَاعُ
2 ـ وَهَلْ أَنَا إِلاَّ مِثْلُ حَسَّانَ شِيمَةً ... جَبَانٌ، وفي النَّظْمِ النَّفِيسِ شُجَاعُ

التخريج : ـ تحفة القادم : 249، التكملة : 344/1 رقم : 1005، ملء العيبة : 195/2، الوافي بالوفيات : 181/2 رقم: 535

= 37 =

قال ابن خميس : أنشدني خالي رحمة الله تعالى عليه ـ يعني ابن عسكر ـ قال : أنشدني أبو عبد الله بن مرج الكحل ـ رحمه الله ـ لنفسه : (طويل)

1 ـ دَعِ ابْنَ حَرِيقٍ يَزْدَهِي بِكَلاَمِهِ ... فَإِنَّ رَحَاهُ دُونَ طَحْنٍ يُجَعْجِعُ
2 ـ وَهَلْ شِعْرُهُ إِلاَّ كَفَارِغِ حِمَّصٍ ... خَلِيٍّ مِنَ المَعْنَى وَلَكِنْ يُفَرْقِعُ

التخريج : فقهاء مالقة : 1،73 ـ ترجمة أبي الحسن بن حريق في زاد المسافر : 64 هامش عدد 1

= 38 =

وقال يصف روضة غناء تمهيدا للانتقال إلى مدح صاحبه أبي عمران : (كامل)

1 ـ طفَلَ المساءُ والنسيمُ تضوّعُ   والأنسُ يَنْظِمُ شملَنا ويُجمّعُ
2 ـ والزهرُ يَضْحَكُ من بكاءِ غمامةٍ   ريعَتْ لشيمِ سيوفِ برقٍ تلمعُ
3 ـ والنهرُ من طَرَبٍ يُصفّقُ موجَهُ   والغصنُ يرقصُ والحمامةُ تَسْجعُ
4 ـ وانعَمْ أبَا عمرانَ وآلَهُ بروضةٍ   حَسُنَ المصيفُ بها وطابَ المربعُ
5 ـ يا شادنَ البانِ الذي دونَ النقا   حيثُ الْتقى وادي الحمى والأجرعُ
6 ـ [الشمسُ يَغربُ نورُها ولربّما   كَسَفَتْ ونورُكَ كلَّ حينٍ يسطعُ]
7 ـ إنْ غابَ نورُ الشمسِ لنا نتّقي   سناكَ ليلَ تفرّقٍ يتطلّعُ
8 ـ أفَلَتْ فنابَ سناكَ عن إشراقها   وجَلا من الظلماءِ ما نتوقّعُ
9 ـ تأمنتُ يا موسى الغروبَ ولم أقُلْ   فوددتُ يا موسى لوَ انّكَ يوشعُ *

التخريج : ـ زاد المسافر : 70، نقتها، مالقة : 99، رفع الحجب المستورة : 25/1، الإحاطة : 346/2، النفح : 53/5 ـ 54، 57، الإعلام : 198/4.

الرواية :

1 ـ في الإحاطة والنفح والإعلام «والأنس يجمع شملنا»

2 ـ في رفع الحجب «عن بكاء غمامة»

3 ـ في نقتها، مالقة «يسفق موجه» ولم يرد في رفع الحجب المستورة.

4 ـ في نقتها، مالقة والإحاطة والنفح والإعلام «فانعم»

6 ـ لم يرد في زاد المسافر، وفي نقتها، مالقة ورد بعد البيت السابع

7 ـ في نقتها، مالقة «بسناك»، وفي الإحاطة «بسناك نتقي» ولم يرد في رفع الحجب

8 ـ في نقتها، مالقة ورفع الحجب «وما يتوقع».

9 ـ في نقتها، مالقة «بأنك يوشع». والشطر الأخير من قول الرصافي البلنسي :

سقطتْ ولم تَملكْ يمينُكَ ردّها   فوددتُ يا موسى لوَ انّكَ يُوشعُ

(ديوانه : 106 ط. ثانية تحقيق :د. إحسان عباس).

* ويوشع هو نبي من بني إسرائيل حجبت له الشمس عند المغيب لمدة من الزمن. وقد أغرم الأدباء بهذا فاستعملوه كثيرا في تعابيرهم الأدبيّة حتى أنهم سموا الشمس «أخت يوشع» (انظر خبر يوشع وتوظيفه في الإبداع الشعري في كتاب رفع الحجب المستورة : 24/1 ـ 25).

= 39 =

قال أبو الحسن الرعيني : وله من قطعة كتب بها إلى شيخنا الجليل أبي الربيع بن سالم : (وافر)

1 ـ لقد فُقْتَ ابنَ سالمٍ البرايا   بما خُوّلْتَ من قدرٍ رفيعِ
2 ـ حَسُنْتَ فكُنْتَ لذّةَ كلِّ عينٍ   كأنّكَ قد خُلِقْتَ من الهُجوعِ

التخريج : ـ برنامج الرعيني : 211

= 40 =

وله أيضا : (المجتث)

1 ـ اصْبِرْ على الظُّلْمِ تُكْفَـــــا   أو تُؤْتَ أجْرًا مُوَفّـــــا
2 ـ مَنْ كانَ غارِسَ شَـــــيْءٍ   فَلْيَنْتَظِرْ مِنْهُ قَطْفـــــا

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 73

= 41 =

وقال في هجاء أبي حريز محفوظ بن مرعي الشريف : (كامل)

1 ـ أمُحَمَّدُ بن حميدِ الكَذِلِ الرِّضـــا   دَعْوى مُحِبٍّ فيكُمُ مَعْـــــرُوفُ
2 ـ إنَّ الذي قَرَّبْتَ غيْرُ مقـــــرَّبٍ   إنَّ الذي شَرَّفْتَ غيْرُ مُشَـــــرَّفِ
3 ـ وَغَدٌ يرى الصلوات نافلةً لـــهُ   ويقولُ بالتَّعطيلِ والتَّحـــــريفِ
4 ـ إنَّ القَريبَ مِنَ القَريسِ مُناسِـــبٌ   والأقْرَبونَ أحَقُّ بِالمعْـــــرُوفِ

التخريج : ـ زاد المسافر : 126 ترجمة المهجوني المصدر نفسه.

= 42 =

وقال فيه أيضا : (متقارب)

1 ـ أيا ناقِصًا يَدَّعِـــــي أنَّهُ   كريمُ الجُدودِ شريفُ السَّـــــلَفْ
2 ـ ألا جِيءْ لنا بِأَبٍ واحِـــــدٍ   وَضِيعٍ ونحنُ نَحُطُّ الشَّـــــرَفْ

التخريج : ـ زاد المسافر : 125.

= 43 =

وقال في ابن حريق : (مديد)

1 ـ ذَهَبَ الحِمَّصُ في الموعدِ الـذي	سُدَّ عن إنجازِ كُلِّ طريـقِ
2 ـ طالَ فيه المَطالُ حتى أنّـي	قد تسلّيتُ بِشِعْرِ ابنِ حَريـقِ

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 73، وابن حريق سبقت الإشارة إليه في القطعة رقم 36.

= 44 =

وقال يتندم لذنوبه ويذكر بعض الواعظين ويستدعي منه الدعاء :(كامل)

1 ـ أذكُرْ ذنوبَكَ أيُّها النَّاسـي	واستَغْفِرَنَّ اللهَ ربَّ النَّـاسِ
2 ـ واقرَعْ على مافاتَ سِنَّكَ نادمـاً	واكرَعْ مِنَ العَبَراتِ في أكـواسِ
3 ـ وانْفُضْ عَنِ الدنيا يدَيْكَ ولاَ تكُـنْ	تُعْنى بهذي الأرسُـمِ الأدْراسِ
4 ـ واكْحَلْ جُفُونَكَ بالسُّهادِ فإنَّمـا	يُرْضي حبيبَكَ غايةُ الإينـاسِ
5 ـ أتنامُ عمَّنْ ليسَ يمنَعُ وصلَـهُ	أخْطَأْتَ أنْ خالَفْتَ كُلَّ قيـاسِ
6 ـ مَنْ باتَ مُلتذًّا بقُرْبِ حبيبِـهِ	لم تتَّصِلْ أجفانُهُ بنُعـاسِ
7 ـ لوْ أنَّ وجدَكَ لا يُقصِّرُ لم تكـنْ	تنسى حبيباً لم تجِدْهُ بنـاسِ
8 ـ إلاَّ وَجَدْتَ الوجْدَ فيه لـذَّةً	إلاَّ رأيْتَ السُّقْمَ خيْرَ لِبـاسِ
9 ـ أُنظرْ لنفسِكَ قبلَ وقتِ رحيلِهـا	واذكُرْ بقبرِكَ قِلَّةَ الإينـاسِ
10 ـ يا ذا الذي أهدى لنا تُحَفَ الهُدى	وأعادَ ذِكْرَ الدِّينِ بعْدَ تَنـاسِ
11 ـ حَيَّتْكَ نفْسٌ صبَّةٌ بتحيَّـةٍ	وردَتْ عليكَ نفيسَةَ الأنفـاسِ
12 ـ ترجو بِيُمْنِكَ دعْوَةً من مؤْمِـنٍ	بُنِيَتْ مِنَ التَّوفيقِ فوقَ أسـاسِ
13 ـ عن خاطِرٍ صَعْبِ القيادِ مخاطِـرٍ	مِنْ كثْرَةِ الأوزارِ في وَسْـواسِ
14 ـ وقَريحةٍ بالسَّيِّئاتِ قَريحَـةٍ	خَمَدَتْ وكانَتْ في ذكاءِ إيـاسِ
15 ـ هزَّتْ مواعِظُكَ القُلوبَ تشوُّقـا	حتَّى ألانَتْ كُلَّ قَلْبٍ قـاسِ (1)
16 ـ فلْتَشْفِها بعْدَ الضَّلالةِ بالهُـدى	أنتَ الطَّبيبُ لها وأنتَ الآسـي

التخريج : ـ الذيل والتكملة : 6/113 ـ 114

(1) يعني به إياس بن معاوية قاضي البصرة الذي اشتهر بالذكاء حتى صار يضرب به المثل في هذا الشأن.

= 45 =

وقال أيضا : (طويل)

1 - يقولونَ لي أعرضتَ عمَّنْ تُحبُّهُ ... كذبتُمْ ولكن لمْ يَكُنْ رامقَ النَّفْسِ
2 - ولم يَكُنْ الإعراضُ منّي تعمُّدا ... وهلْ يُمكنُ الإعراضُ عنْ غايةِ الأُنسِ
3 - ولكنْ صَرَفْتُ الطرفَ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ ... كَمَا تُصرَفُ الأبصارُ عَنْ قُرْصَةِ الشَّمْسِ

التخريج : - فقهاء مالقة : 72

= 46 =

ومما ضمنه رسالته إلى أبي بحر صفوان بن إدريس : (بسيط)

1 - يا مَنْ تبوّأ في العَلياءِ مَنْزِلَةً ... جَدّاهُ قَدْ أسّاها أيَّ تَأسيسِ
2 - لم يتركا في العُلا حَظّاً لِمُلْتَمِسٍ ... سيّان هذا وهذاك ابْنُ إدريسِ
3 - وافى كتابكُم فارتدَّ لي جَذَلي ... واعتَضْتُ مِنْ فَرْطِ أشْواقي بتأنيسِ
4 - وللنّوى لوعةٌ تطفو بُطِنُتُها ... مِسكُ المِدادِ وكافُورُ القَراطيسِ

التخريج : - نفح الطيب : 58/5، الإعلام : 201/4

= 47 =

وقال مخاطبا أبا عمرو محمد بن غياث * : (وافر)

1 - أبَا عَمْرٍو ولي نَفْسٌ ونَفْسٌ ... تَهادى ذا إليكَ، وَذي تَجيشُ
2 - وَجَأشٌ كُلّما لاقى بِصَبْرٍ ... جُيوشَ هَوى أمدّتْها جُيوشُ
3 - وقَلْبٌ ظَلَّ عَنّي لَسْتُ أدري ... أمَثْواهُ الجَزيرةُ أمْ شَريشُ
4 - سِوى أنّي تَطيرُ إليكَ روحي ... بأجْنِحَةِ الهوى والشَّوقُ ريشُ
5 - كأنّما لم تَنَلْ بالجِزْعِ أُنْسًا ... تَلوذُ بِهِ حَوالينا الوُحوشُ
6 - وَمِنْ سِرِّ السُّرورِ لَنا مِهادٌ ... وفوقَ رؤوسِنا مِنْهُ عُروشُ
7 - وقدْ راشَ الشّبابُ جَناحَ أُنسي ... بِحَيْثُ جَناحُ غَيْري لا يَريشُ
8 - فيا عَجَبًا مِنَ الأيّامِ تُبْدي ... لَنا دَعةً وأيدينا تَبوشُ
9 - ألا للهِ مِنكَ صَفِيُّ وُدٍّ ... لَهُ رُجْحانُ حِلْمٍ ما يَطيشُ
10 - تَمازَجَ روحُهُ حُبًّا بِروحي ... فَما أدري بأيِّهِما أعيشُ

التخريج : ـ برنامج الرعيني : 101 (وردت فيه الأبيات الثلاثة الأولى فقط. الذيل والتكملة : 6/115 ـ 116

الرواية : 3 ـ في الذيل «وقلب ضلّ»

* أبو عمرو محمد بن غياث ترجمته في برنامج الرعيني : 99 ـ 101

= 48 =

وله يتشوق إلى أبي عمرو بن غياث : (وافر)

1 ـ أبا عَمْرو ومتى تَقْضي اللّيالي — بلُقياكُم وهُنّ قصَصْنَ ريشي

2 ـ أبَتْ نَفْسي هَوى إلاّ شَريشا — وبا بُعْدَ الجَزيرةِ مِن شَريشِ

التخريج : ـ برنامج الرعيني : 100، زاد المسافر : 70، فقهاء مالقة : 75، الذيل والتكملة : 6/116، الإحاطة : 2/346، نفح الطيب : 5/53، الاعلام : 4/198.

= 49 =

وله أيضا : (مطلع البسيط)

1 ـ لا تَطلُبوا الودَّ عندَ والٍ — في تَركِه الأذى كِفايَة

2 ـ رُبَّ ضَعيفٍ أفادَ خَيرًا — يَجري مَعَ القُوَّةِ الإذايَة

3 ـ ما كانَ في النَّفسِ مِن خَبايا — تُخرِجُه الخَمْرُ والوِلايَة

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 73

= 50 =

ومما قاله بمناسبة فتح أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي لمدينة المهدية سنة ثلاث وستمائة للهجرة : (طويل).

1 ـ ولمّا توالى الفَتْحُ من كُلِّ وِجهَةٍ — ولمْ تَبلُغِ الأوهامُ في الوَصفِ حَدَّهُ

2 ـ تَركْنا أميرَ المُؤمنينَ لشُكرِهِ — بما أودَعَ السِّرُّ الإلهيُّ عندَهُ

3 ـ فلا نِعمَةٌ إلاّ تُؤدّى حُقوقُها — عَلامَتُهُ بالحَمدِ للهِ وَحدَهُ

التخريج : ـ النفح : 172/4، الإعلام : 203/4، الاستقصاء : 217/2.

= 51 =

وقال أيضا : (وافر)

1 ـ ألا قُلْ لابْنِ بَغْلٍ لا يُـــؤَذِّنْ   فَيبخَسُ ذِكْرُ خالِقه بفيـــــه
2 ـ إذا ما كانَ في فيهِ كَمِيـــفٌ   فَكَيْفَ يَحِلُّ ذِكْرُ اللّهِ فيــــهِ

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 73 وسياق المقطوعة لا يوضح المعنى بهذا الهجاء لكنه يبدو أنه أحد المؤذنين.

= 52 =

وقال يمدح أبا عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش التجيبي : (وافر)

1 ـ لقد طلَعَ ابنُ عياشٍ شِهـــابًا   شهابَ الأُفْقِ يَلْثِمُ أخْمَصَيْـــهِ
2 ـ تُطَرِّزُ بِاسْمِه ديوانَ شِعْــرِي   وكانَ لهُ مُعَادَ إلى يَدَيْـــهِ
3 ـ إذا كانَتْ مَعاني الشِّعْرِ مِنْـــهُ   فَقَدْ رُدَّتْ بِضاعَتُهُ إليـــهِ

التخريج : ـ فقهاء مالقة : 65 وسبقت الإشارة إلى الممدوح في قطعة : 2

قائمة المصادر والمراجع

1 ـ الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب نشره المرحوم محمد عبد الله عنان ـ الجزء الثاني ـ مكتبة الخانجي بالقاهرة ط. أولى 1394 هـ / 1974.
2 ـ اختصار القدح المعلى لابن سعيد ـ تحقيق : أ. الأبياري ـ القاهرة ط . ثانية 1980م.
3 ـ الأدب الأندلسي في عصر الموحدين د. حكمة علي الأوسي. مكتبة الخانجي القاهرة . ب. تا.
4 ـ أزهار الرياض للمقري ـ الجزء الثاني ـ ط. صندوق أحياء التراث الإسلامي. الرباط 1978.
5 ـ الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام للعباس بن إبراهيم ـ الجزء الرابع ـ تحقيق عبد الوهاب بن منصور . المطبعة الملكية . الرباط 1976 م.
6 ـ الأعلام للزركلي ـ الجزء السادس . ط ثانية.
7 ـ الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للشيخ الناصري تحقيق : د. جعفر الناصري ومحمد الناصري الجزء الثاني. دار الكتاب بالدار البيضاء 1954.
8 ـ تحفة القادم لابن الأبار صنعة الدكتور إحسان عباس ـ دار الغرب الإسلامي ط. أولى 1984.
9 ـ التكملة لابن الأبار ـ تحقيق : كوديرا. مدريد 1887.
10 ـ جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى لأبي يحي ابن عاصم . تحقيق : د. صلاح جرار. عمان . ط. أولى 1989.
11 ـ ديوان ابن خفاجة الأندلسي . تحقيق : د. سيد غازي . الإسكندرية ط . ثانية 1979.
12 ـ ديوان الرصافي البلنسي تحقيق : د. إحسان عباس ـ دار الشرق ط. ثانية بيروت 1983.
13 ـ ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي . تحقيق : د. جمعة شيخة ود . محمد الهادي الطرابلسي ـ بيت الحكمة . تونس 1988.
14 ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشي ـ الجزء السادس ـ تحقيق: د. إحسان عباس . دار الثقافة ـ بيروت ط. أولى 1973.
15 ـ رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة للغرناطي ـ ط. السعادة بمصر 1344 هـ.
16 ـ زاد المسافر لأبي بحر صفوان بن إدريس أعده وعلق عليه عبد القادر محداد. دار الرائد العربي بيروت 1980.
17 ـ السّحر والشّعر لابن الخطيب، نشره ونقله إلى الإسبانيّة خ.م. كونتنتي فرير. ط المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد 1981.

18 ـ المحمدون من الشعراء للقفطي . تحقيق : رياض عبد الحميد مراد ـ دار ابن كثير دمشق 1407 هـ / 1988 م. ط. ثانية.
19 ـ مختارات من الشعر المغربي والأندلسي . تحقيق: إبراهيم بن مراد ـ دار الغرب الإسلامي. بيروت . ط. أولى 1406 هـ / 1986 م.
20 ـ مرج الكحل ـ مقالة ـ لرشد حمد . مجلة الطليعة الأدبية . بغداد ـ العدد الأول 1978.
21 ـ معجم البلدان لياقوت الحموي ط. ليبزغ 1873 وط. السعادة 1323 هـ / 1906م.
22 ـ معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ـ الجزء السادس ـ دار إحياء التراث العربي (ب ـ تا).
23 ـ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد ت : د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ط. ثالثة القاهرة.
24 ـ ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة .... لابن رشيد السبتي . تحقيق : د. ابن الخوجة ـ الجزء الثاني ـ تونس . ط. أولى 1402 هـ.
25 ـ المقتضب من تحفة القادم لابن الأبار. تحقيق : إبراهيم الأبياري ـ بيروت 1403 هـ.
26 ـ نفح الطيب للمقري : تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت 1388 هـ / 1968م.
27 ـ نهاية الأندلس للمرحوم محمد عبد الله عنان ـ القاهرة ط. رابعة 1987م.
28 ـ فقهاء مالقة وأدباؤها مخطوط خاص.
29 ـ سرور النفوس للتيفاشي ـ تهذيب محمد جلال الدين المكرم ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار الثقافة بيروت ط. أولى.
30 ـ الوافي بالوفيات للصفدي ـ الجزء الثاني ـ تحقيق : س. ديد رينغ ط. بغداد 1394 هـ/ 1974 ط. ثانية.
31 ـ وفيات الأعيان لابن خلكان . تحقيق د. إحسان عباس ـ الجزء الثاني ـ دار الثقافة بيروت. (ب. تا).

عبد الله كنّون: العالم المحقّق

نجاة المريني
كلية الآداب - الرّباط

الحديث عن الفقيد العلاّمة عبد الله كنّون متشعّب المسالك، متعدّد الأشكال. فقد خاض غمار كلّ مسلك صعب من ميادين العلم والدرس، ألّف وحبّر في موضوعات شتّى قد لاتجمع بينها صلة أو علاقة، هدفه خدمة تاريخ وطنه المغرب في مجالات المعرفة بكلّ صنوفها وألوانها، وكتاباته ومؤلفاته أكثر من أن تحصى في ميدان الأدب والتاريخ والنّقد والتحقيق.

أمّا اهتماماته بالإسلاميات، فقد شكّلت لونًا متميزًا في مؤلفاته، من حيث التناول والنقاش. وهو يعدّ - بالإضافة إلى كلّ هذا - واحدا من أبرز الشعراء المغاربة الأوائل الذين ناضلوا بشعرهم في الدفاع عن الوطن منذ فترات بعيدة.

من بين الموضوعات التي شغلت حيّزًا من اهتمامات الأستاذ كنّون في ميدان الدراسات الأدبيّة والتّاريخية المغربيّة، التّراث المغربي باعتباره منقذا مشعًا للفكر والأدب المغربيين.

يرى العلاّمة عبد الله كنّون أنّ إحياء التراث المغربي من المهمّات الصعبة التي يجب أن يقوم بها الباحث المغربي. فتاريخ المغرب كما يقول: «يشكو مرّ الشكاية من الضيّاع»(1).

لذا كانت عنايته كبيرة - عند العثور على كتاب مخطوط في الأدب أو التاريخ - بتحقيقه ونشره وتقديمه للقرّاء تعميمًا للفائدة وتعريفا بالتّراث المغربي على أوسع نطاق. فهو كما قال عنه ألفريد البستاني: «يعمل حبًا بالعمل، يجاهد في سبيل الأدب لأجل الأدب. تراه في مختبره الأدبي، وإن شئت قل في منسكه، مكبًا على الدرس والبحث والتّنقيب والتحقيق. بين تحبير وتحرير وتصنيف»(2).

شكّلت مجالات الدّراسة والتحقيق عند الأستاذ كنّون منحيين رئيسيين:

المنحى الأول: ويشمل الشروح والتعليقات. من ذلك شرحه لمقصورة المكودي، وشرح الشّمقمقيّة لابن الونان، وكتاب الأربعين حديثا الطبية المستخرجة من سنن ابن ماجة لعبد اللّطيف البغدادي. وهي أعمال يُعنى فيها الأستاذ كنّون بتقديم صاحب النص الشّعري أو النثري متقصيًا أخباره، متناولا العمل بكثير من الضّبط والشّرح والتّعليق. وبالإضافة إن اقتضى الحال ذلك.

---

(1) مقدمة تحقيق كتاب مناهل الصفا، ص 7

(2) ترجمة كتبها ألفريد البستاني في تقديم تحقيق ديوان يوسف الثالث ملك غرناطة، ص 5.

المنحى الثاني: ويعنى فيه الأستاذ كنّون بتحقيق المتون وتقديمها. وتتميز أعماله في هذا المجال بالدقة والعمق، إذ في هذا التراث يتحقق وجود المغرب الحضاري والفكري عبر التاريخ، ويبرز تفوّق المغاربة في ميادين الأدب والتاريخ والرحالة وغير ذلك. إضافة إلى أنّ مثل هذه الأعمال في فترات صدورها كان دفاعًا عن كيان أمة وحضارة شعب، ومواجهة للمستعمر الأجنبي الذي كان يُنكر وجود المغرب الحضاري والفكري على امتداد القرون، خاصة منذ الفتح الإسلامي.

ولقد تناولت أعمال الأستاذ كنّون في مجال تحقيق التراث المغربي المتون الشعرية، والمتون النثرية الأدبية والتاريخية، وكذلك متنًا في الأنساب.

المتون الشعرية:

1 ـ المنتخب من شعر ابن زاكور:

وهو أول متن شعري اهتمّ به العلامة كنّون، وعمل على تقديمه تعريفا بالشاعر، واستثارة للقارئ المغربي ثم العربي للبحث في خبايا الأدب المغربي المنسيّ.

وقد صدر هذا المنتخب في طبعة أولى سنة 1941. ضمن منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو للأبحاث العربيّة الإسبانية.

يشير الأستاذ كنّون في مقدمة المنتخب إلى أنّ «ابن زاكور جمع شعره كلّه في ديوان سمّاه: الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض، ورتّبه على حروف المعجم في الأول، ثم صار يُلحق به ماجدّ له من النظم على غير ترتيب» (3). وإذا كان عمل الأستاذ كنّون في تحقيق هذا المتن قد اقتصر على اختيار منتخبات شعرية من الديوان دون أن يشمل كل الديوان، فلعل ذلك راجع إلى تقديم إضاءات وافية عن الديوان وصاحبه من خلال المنتخبات.

ولايخفى أنّ اختيار نصوص شعرية من ديوان ليس بالعمل السهل الميسّر، بل قد يُوقع صاحبه في مطبّات كان بالإمكان أن يكون في غنى عنها، فحسن الاختيار يدل على ملكة نقديّة، وعلى ذوق فنيّ رفيع، وعلى براعة في التنسيق بين المنتخبات المختارة، ولعل عملية الاختيار هي إعادة تركيب جديدة لمتن شعري يجمع بين الغث والسمين والجيد والردي». وكما يقول ألفريد البستاني في تقديمه لهذا المنتخب: «لايخفي أن منتخب الشعر ومنتقيه لايقلُّ براعةً وذوقًا وشعوراً عن قائله، هذا إذا أحسن المنتخب الاختيار، وروّض مخيّلته بإتباع مخيّلة المصوّر، ورقّق شعوره بالإحساس بشعور الشاعر، فكشف عن أسرار الجمال الفني، فأثبتها، كما شعر بمظان العثم ومواطن الضعف فتجنبّها» (4).

إنّ حرص الأستاذ كنّون على إظهار جمالية شعر ابن زاكور دفعه إلى عمل هذا المنتخب، يقول: «... جاءت دواوين كثير من أدبائنا مشحونة بالغثّ والسمين، ولم يمكن الفرق بين الرخيص

---

(3) مقدمة المنتخب ص 19. وقد قام الأستاذ الصغير بتحقيق الديوان كرسالة جامعية نوقشت في أفريل 1989.
(4) ن.م، ص 6.

منها والثمين، وبسبب ذلك، قد عملنا هذا المنتخب من شعر ابن زاكور»(5).

أمّا عن طريقته في اختيار أشعار هذا المنتخب وترتيبه فيقول عنها: «ونحن بعد أن تخيّرنا من شعره كلّ مافيه روح، وعليه مسحة من الجمال، وأسقطنا سفسافه ورديئه، ارتئينا أن نرتّبه على الأغراض التي نظم فيها وهي المديح، والربيعيات، والزهريات والغزل والرثاء والنصائح»(6).

ويظهر أن الجهد الذي بذله صاحب المنتخب كان مضنياً، تقصّى فيه أشعار الديوان بدقة، واختار بذوق ورهافة حسّ ماكان يراه شعراً متدفقًا سلسًا جميلا، سالكً نهج القدامى في تخيّر أشعارهم إذ «ينتخبون من أشعارهم كلّ نفيس وغال قصد ترغيب الناس فيها وإمدادهم بما يستحق أن يُروى منها موفّرين عليهم تعب البحث والتنقيب»(7).

ويشير الأستاذ كنّون في خاتمة تقديمه للمنتخب إلى قيمة هذا العمل ومكانته من بين الأعمال الأخرى بقوله: «ونعتقد أنه حتى بعد نشر ديوان ابن زاكور بأكمله، سيبقى هذا المنتخب محتفظا بمكانة لدى الأدباء»، معتبراً أنه الديوان الحقيقي لابن زاكور»(8).

2 ـ تحقيق ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث:

وهو عمل جليل يفيد المؤرخ والناقد والأديب، لذا فالعثور على ديوان ملك متأخر هو يوسف الثالث يُعدُّ إضافة جديدة إلى تاريخ الأندلس وتاريخ الشعر العربي في تلك الفترة الغامضة، أمّا الأديب فسيجد متعة ولذة في قراءة الديوان الذي تنوعت موضوعاته ورقّت أساليبه، وسيفيد القارئ في الاطلاع على حياة أمير انصرف إلى الدراسة وقول الشعر أكثر من انصرافه إلى السياسة والحكم، كما سيفيد القارئ في تتبّع الأغراض الشعرية التي حفل بها الديوان وخاصة الغزل والوصف.

أما الدراس الناقد، فسيجد في هذا الديوان مادة غنيّة لدراساته النقدية للشعر الأندلسي من حيث لغته وأسلوبه وفنّه.

أمّا الديوان من حيث هو مخطوط فيعتبر «تحفة نادرة، بل ذخيرة ثمينة عثر عليها بناحية سوس صديقنا العلامة الجليل السيد محمد المختار السوسي، عند النقيه العالم السيد عبد الله الكدماني، وأهداها لنا بمناسبة زيارتنا لمراكش في ربيع سنة 1369 هجري، رجاء القيام بنشرها وتقديمها إلى العالم العربي طرفة أدبية يعزّ لها الكفاء، لأنها على مايظنّ صديقنا لاثاني لها في العالم»(9).

---

(5) ن. م، ص 16.
(6) ن. م، ص20.
(7) ن. م، ص 20.
(8) ن. م، ص 20.
(9) مقدّمة ديوان يوسف الثالث ص ظ.

وقد تناول المحقق الديوان بالوصف الدقيق من حيث عدد ورقاته وجمال خطه، وخطبته المبتورة. ومن حيث المحتوى أشار الأستاذ كنّون إلى تفوّق الشاعر في بعض الأغراض الشعرية دون غيرها كالغزل والوصف «ولا سيّما لقصور غرناطة والحمراء، ومناظرها الجميلة وضواحيها النضرة، من السبيكة والمرج وماإليهما» (10).

أمّا القصائد الفخرية التي قالها الشاعر في وصف المعارك الحربية والمنازعات السياسية «فتلوح على كلامه شارة الملك ونخوة الرئاسة» (11).

وبالرغم من كون الأستاذ كنّون اعتمد على نسخة فريدة في تحقيق الديوان. فقد كانت دقّته كبيرة في الإشارة إلى الأخطاء التي وقع في الشاعر منبهًا إليها في الهامش، وقام بتفسير الغامض من الكلمات، وللأمانة العلمية ترك فراغا لكلّ بياض بالأصل.

أمّا الفهارس فمتعدّدة:

- فهرس المحتويات
- فهرس القبائل والأعلام
- فهرس الأماكن والبلدان
- فهرس التواريخ المذكورة في الديوان
- فهرس الكتب المذكورة في الديوان
- فهرس لما في الديوان من أبيات ليست لصاحبه.

هذا، وقد صدر الديوان في طبعته الأولى سنة 1958م ضمن منشورات معهد مولاي الحسن بتطوان، وفي طبعته الثانية عن مكتبة الأنجلو المصرية سنة 1965 بالقاهرة.

المتون النثرية:

1 . رسائل نقدية:

وهي مجموع يضمّ اثنتين وستين رسالة صدرت عن السلطان أحمد المنصور السعدي في فترات مختلفة، أهداه العلامة محمد المختار السوسي لصديقه عبد الله كنّون أثناء زيارته لمراكش في ربيع 1369 هجرية. ويشير الأستاذ كنّون في تقديمه لهذه الرسائل بأنّها «من إنشاء الكاتبين عبد العزيز الفشتالي ونسيبه محمد بن علي» (12).

وعن فائدة هذه الرسائل يقول المحقق : «ولا تخفى فائدة هذه الرسائل للأديب والمؤرخ معا، فالأول يجد فيها من النصوص الجميلة ما يُعينه على تتبّع حياة اللغة والإنشاء في هذا العصر، ويقف على آثار لأدباء لم تكن معروفة من قبل، فتتكون له بذلك فكرة عنهم. والثاني يجد فيها تفصيلا لوقائع حربيّة، وحديثا عن علاقات دبلوماسيّة، وحوادث وماجريات أخرى لها

---

(10) ن. م، ص م.
(11) ن. م، ص غ.
(12) مقدّمة رسائل سعدية ص 11.

كثير من الأهميّة بالنّسبة إلى البحث التاريخي المجرد » (13).

وقد صدرت هذه الرسائل في طبعتها الأولى سنة 1954 ضمن منشورات معهد مولاي الحسن بتطوان.

2 ـ مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا لعبد العزيز الفشتالي :

وهو كتاب تاريخي هام حرص الأستاذ كنون على تحقيقه وتقديمه، بعد أن عثر عليه في « تركة أحد الطلبة بفاس » (14)، وهو بهذ التحقيق أفاد المكتبة الأدبيّة والتاريخيّة المغربيّة، إذ نفض الغبار عن تاريخ المغرب في فترة مزدهرة في ميادين كثيرة.

والكتاب المحقق كما يؤكد الاستاذ كنون هو مختصر الجزء الثاني من كتاب مناهل الصفا الذي يقع في مجلّدات، والذي نجا من الضياع والتلف، أمّا الأجزاء الأخرى فهي في حكم المفقودة.

انصبّ العمل على تقديم المتن التاريخي بتصويب الأخطاء، وذلك بالمقارنة مع نسخة أخرى من الكتاب توجد في تونس، مع التنبيه إلى ذلك في الهامش، يقول الأستاذ كنون : « كان عملنا في تحقيق هذا الكتاب أننا حرصنا على أن نقدّم منه نصّا صحيحا أقرب ما يكون إلى الأصل الذي كتبه المؤلف، ولم نحاول قطّ أن يكون التحقيق شرحا لهذا المختصر وتعليقا يزيد على غرض التحقيق » (15).

وفائدة المختصر تصبُّ في الأدب والتاريخ، ففيه تفاصيل دقيقة عن الأحداث السياسية والمعارك الحربيّة التي عرفها المغرب في عصر المنصور السعدي، وفيه الأدبيات والأشعار التي سجّلها المؤلف في سياق مروياته وأحاديثه.

أمّا المجموعة الشعريّة التي جعلها المحقّق ذيلاً لكتاب مناهل الصفا، فهي تضمُّ تسع عشرة قصيدة لشعراء العصر السعدي تتوزّع بين مدح السلطان ومدح الرّسول عليه السّلام ووصف قصر البديع، بالإضافة الى القصائد الشعريّة المتضمّنة في المتن التاريخي.

وقد ارتكز عمل الأستاذ كنون الدّقيق على ضبط المتن وتصحيحه بالرّجوع إلى المظان التاريخيّة والمصادر المتنوّعة، «وبتصحيح الأشعار وبحسب ما يحتمله اللّفظ والمعنى وصناعة الشّعر على العموم» (16).

وجعل المحقّق لهذا المتن فهارس خمسة :

ـ فهرس الموضوعات

ـ فهرس الأعلام الواردة في المتن.

---

(13) ن. م، ص 11.

(14) مقدمة مناهل الصفا ص 8

(15) ن. م، ص 13

(16) ن. م، ص 15

- فهرس الأسماء والأماكن.
- فهرس الأشعار.
- فهرس لأسماء الكتب.

وقد كان صدور هذا المتن سنة 1964 عن المطبعة المهدية بتطوان ضمن منشورات كلية الآدابـالرباط.

- عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب : وهو تحقيق طريف في الأنساب، وضعه محمد بن موسى الحازمي الهمذاني المتوفى سنة 584 هـ ببغداد، أحد الحفاظ الزهاد، نعته ابن العماد في شذارات الذهب بقوله : «كان فقيها حافظا زاهدا ورعا متقشفا حافظا للمتون والأسانيد، غلب عليه علم الحديث وصنّف فيه تصانيفه المشهورة منها : النّاسخ والمنسوخ في الحديث، وكتاب المشتبه» (17) .

موضوع الكتاب كما يشير المحقق إلى ذلك «أصول الأنساب العربية وتفرّعاتها... ويعتبر بمثابة المعجم الصغير أو المفتاح لمعرفة أنساب المشاهير من الرجال مع ضبطها وتحديدها»(18).

اعتمد المحقق في ضبط الكتاب وتصحيحه على ثلاث نسخ تفاوتت ضبطا ودقة وإتقانا. وكما يقول المحقق فهو «لم يعتمد في طبع العجالة أية نسخة من هذه النسخ الثلاث، وإنما أخذ بعين الاعتبار الجمع بين هذه النسخ ما أمكن»(19).

كما أن تحقيق الأنساب عمل صعب «فإذا لم تضبط ضبطا صحيحا، فكأنّ الانسان لم يعمل شيئا في تحقيقها وضبطها» (20).

أمّا الفهارس، فتشتمل على:
- فهرس لمصادر التحقيق
- فهرس الأنساب مرتبة باعتبار الحرف الأول.
- فهرس القبائل والأماكن المنسوب إليها.
- فهرس الأعلام المذكورة في كل نسب.

وقد قام بطبع الكتاب مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1965.

* * *

يتميز عمل الأستاذ العلامة عبد الله كنّون في عنايته بالتراث الأدبي والتاريخي المغربي، وعمله من أجل نشره والتعريف به، بالدقّة والضبط : من حيث توثيق النص نسبةً

---

(17) مقدّمة عجالة المبتدي ص ط
(18) ن. م، ص أ.
(19) ن. م ص هـ.
(20) ن. م ص و.

ومادة، ومن حيث توضيحه وضبطه، ومن حيث التعليق عليه في الهوامش. مؤكداً استعانته بالمصادر والمخطوطات ذات الصلة بالمتن موضوع التحقيق، كما أنّ هناك خاصية أخرى في تحقيق الأستاذ كنّون هو حرصه على تقديم النص كما وجده مخطوطا دون تصرّف بتقديم أو تأخير حتى لا يُخلّ بأمانة التحقيق، وحتى لا يُخلّ بتقديم العمل كما وجده في الأصل المخطوط.

ويظهر جهد المحقق في المقدمة التي تتصدّر المتن، ففيها يتحدث عن عمله وعن منهجه في تقديم النص، معرفا بصاحبه، وبظروف تأليفه للنص.

وتبدو أهمية تحقيق المتن في الهوامش والطرر التي تُفسّر الغامض، وتكشف عن قدرات المحقق في تقديم النّص تقديما علمياً جيّداً بالإحالة على المصادر والمراجع، وبالتّنبيه إلى الفروق بين النسخ المعتمد عليها في التحقيق إن كانت متعدّدة، أو بترجيح الرواية الأقرب إلى الصواب إن كانت النسخة يتيمة.

أمّا الفهارس، فهي تلخّص العمل الجليل الذي كان يقوم به الأستاذ كنّون في صبر وأناة، خاصة مايتعلق بفهارس الأعلام والأماكن، فهي تُسهّل على القارئ والباحث مشقة البحث عن علم معيّن أو مكان معيّن، فينصرف إلى الموضوع دون كبير عناء.

والأستاذ كنّون واحد من ألمع المؤرخين والمحققين للتراث المغربي. فهو كما يقول عنه الأستاذ وحيد الدين بهاء الدين : «إذا كان العلماء والباحثون على امتداد الوطن العربي يعرفون بسبب من تعصّبهم للمذاهب السياسية والدينية المتصارعة، فإنّ للعلامة عبد الله كنّون قسطاً ظاهراً في إحياء التراث العربي الإسلامي، من تحقيق المخطوطات الشعرية على منهج علمي أصيل وتقويم صيغ الشعر القديمة والحديثة، وتحديد ملامح الشعراء ومنازلهم، إلى جانب رصد حركات الإصلاح والتجديد والثقافة هنا وهناك، تعليلا وتحليلا»(21)./.

* * *

(21) عبد الله كنّون شاعراً، مجلة المناهل، العدد 6، ص 418.

تقديم كتاب : الفنّ الطليطلي تحت الحكم الإسباني*

(1900/1600 - 1300/700)

بقلم د. خميس جميل الزّبيدي

مقدمة

يشتمل هذا الكتاب على ثمانية فصول هي:

الفصل الأول: يضم مختصرا عن الحكم الإسلامي وعن المسلمين، والمستعربين، والفرنجة واليهود تحت الحكم الإسباني.

الفصل الثاني: يستعرض النقوش والزخارف العربية في طليطلة.

الفصل الثالث: يبحث في الحصون والدفاعات العسكرية.

الفصل الرابع: يتحدث عن الهندسة المعمارية والمدنية ويضم الجوانب الدينية من مساجد وقصور إسلاميّة وكنائس.

الفصل الخامس: يتناول روائع الزخرفة الإسلاميّة في قرطبة وطليطلة في عصر المرابطين والموحدين.

الفصل السادس: يعالج الزخرفة الأثرية الفخمة في عهد المسلمين تحت حكم الإسبان. ويشمل على بدايات تأثير المرابطين والموحدين، وعلى موجز عن الفن الحضري مثل القصور (قصر إشبيلية) المسمى (Alcazar) ، والرجه الغرناطي ودوره في الفن الطليطلي.

الفصل السابع: ويبحث في الزخرفة النباتية (زهور ونباتات وأوراق الأشجار).

الفصل الثامن: وتناول الزخرفة التصويرية وتشمل الإنسان، والحيوان، والطير.

وبعد هذا العرض الموجز لفصول الكتاب، نحاول أن نبرز الأثر الغرناطي في الزخرفة الطليطلية. ويمتدّ هذا الموضوع على كامل الفصول الأربعة الأخيرة من الكتاب (من الفصل الخامس إلى الفصل الثامن):

إن البيوت التي اتبعت في زخرفتها الأثر الغرناطي بشكل جلي كثيرة منها:

قصر أرمينيو، وصالة الكورال، وصالة الحظيرة (فناء البيت)، وهي من ممتلكات السيد دون ديغو إضافة إلى الزخرفة المسماة نقش المورو (المسلم)، والبيوت ذات الأروقة من ممتلكات السيدة سانتا إيسابيل. انظر الصورة رقم (XVI) ص 204.

ونشاهد في بيوت السيدة سانتا وفي معابد أخرى أقواس بناء مثل المقرنصات الغرناطية،

(*) تأليف مجموعة من المصنفين الإسبان بإشراف: المعهد الإسباني العربي، مراجعة: د. بسيلبو بايون، ترجمة وإعداد د. خميس جميل الزّبيدي ومساعدة ومراجعة د. عبد الحميد الهيتي، الطبعة الثانيّة عام 1973.

وقد زينت هذه الأبنية، وتلك البيوت بالخط الكوفي، وهو من إبداع الكتاب الغرناطيين، وقد بقيت ظاهرة الإبداع هذه مستخدمة في طليطلة حتى بداية القرن الخامس عشر. انظر الشكل (81).

وهذه الظاهرة الإبداعيّة تبدو واضحة جليّة في معبد التوبة. انظر (116).

واشتهر قصر (Ocano) بالنقش والكتابة الكوفية الغرناطية الأصل. وقد ظهرت بارزة في واجهات هذا القصر. انظر ص ص 165-205.

الزخرفة الأثريّة الإسلاميّة: إنّ الفنّ الطليطلي في القرنين التاسع والعاشر للميلاد يطابق في هيئته الكلاسيكيّة التوريد (الزخرفة الورديّة) مثل رسم الفواكه والقدود المنقوشة والمجسمات الأخرى، وكلها تهدف إلى تكوين أشكال حلزونيّة أو أقواس نصف دائرية بطريقة فنية ومتنوعة، وفن إحجار العقود أو ما يسمى (بالصنجات الملسة) وجميعها من أصول قرطبية. (انظر الصور رقم 10 ، 11 ، 61)

ومن الواضح أن الآثار التي تعود إلى عصر الطوائف كانت هي الأصل للفرع، ثم انتشر هذا الفن وبرز على الجدران كمعالم معماريّة في أرجاء الأندلس.

وقد كون الفنانون الغرناطيّون المسلمون مراكز فنيّة مشابهة في المدن التي استردها الإسبان، وفي عواصم الممالك المسيحيّة الإسبانيّة، لكن هذه المراكز كانت ذات طابع مختلف وظاهرة فنيّة متميزة،. فقد أبدع هؤلاء الفنانون الأساس المميّز للشخصيّة الواحدة في الفنّ العربي الأندلسي قبل المرابطين والموحّدين.

ويبدو أن الفنّ القرطبي الوافد هو سبب انتشار وتطوّر الفنّ الزخرفي في المناطق التي أشرنا إليها (انظر ص ص 120-121)

وإضافة إلى ما ذكرنا فقد ظهرت في حفريّات مدينة الزهراء أطناف كاملة لعقود من الحجر تشبه مثيلاتها في طليطلة وهي المصنوعة من الخشب. وقد احترقت معظم هذه الأصول الخشبيّة في عدد من قصور قرطبة. وهي القصور التي اقتبس العرب تحت الحكم الإسبانيّ مثيلاتها في طليطلة. (انظر الصورة (ZXX) ص 49).

ومن معالم التأثير القرطبي في العمارة الطليطليّة الرسومات الهندسيّة المنقوشة على تراند مسجد قرطبة وعلى عقوده وأهدافه الأخرى.

وفي الفصل السادس حديث عن دور الفنّ الغرناطيّ وأثره في الزخرفة الطليطليّة، ومن الشواهد عن هذا الفن:

ـ كنيسة سانتا ماريا في طليطلة. (الصورة رقم 80 تشير إلى زخرفة طليطلية متأثرة بالفنّ الأندلسي).

ـ صورة من قصر المورو (المسلم).

- صورة من قصر السيد بدرو : وهو قصر إشبيليّة العربيّ، والمصلى الملكي في قرطبة.

- صورة عن سقف كنيسة صالة الطاولة.

- صورة عن القصر المسمى طُورْدِسِياس Tordesillas .

- صورة عن نقش من الجص الطليطلي لبيت أرضي والشكل نفسه له مثيل في قصر طوردسياس Tordesillas ، وسويردو، وسان خوان (Sanjuan). وقصر كاسير وهو موجود في مدينة غاليانا (Galiana). (انظر الصورة رقم 81 ص 166).

إن أفخم البيوت وأحلاها فنّا في طليطلة قد زخرفت وزيّنت بالجصّ على أيدي حرفيين غرناطيّين، وهذه البيوت هي من ممتلكات النّبلاء والأشراف، وتعود في بنائها إلى القرن 8 هـ / 14 م.

ومن المعالم والبيوت التي تأثّرت بهذا الفنّ القصر المسمّى صالون دي ميسا Salon de-mesa أي صالة الطاولة : وهو كما ذكرنا للسيد بدرو، والقصر المسمّى فُوان سليدا Fuen Salida وجميعها تميّزت بالزّخرفة المسمّاة الزهر الطبيعي أو الرسم النباتي. (انظر الصورة رقم 96).

ومن إبداعات الحرفيّين في مدينة طليطلة وضع عقود من الأقواس مغطاة بأوراق ضخمة من العنب، إذ عندما تسقط أشعّة الشمس الذهبيّة على هذه الرسومات النباتيّة تنعكس أشعّتها محدثة نورا ساطعا يخطف الأبصار، ويمكن مشاهدة ذلك في قصر تران Tran. (انظر الصورة رقم 97 ص 186).

ويتفوق الفنّ الغرناطيّ في طليطلة على الفن القرطبي بكونه أكثر أناقة ودقّة ورشاقة، ويبدو ذلك واضحا في المعالم التالية:

- كنيسة السيد سان أندرو San andiro.

- وأقواس قصر السيّدة بدرو.

- وقصر السيد فون ساليدا Fuen Salida خاصّة الصفائح واللّوحات.

- والمنازل التابعة لدير السيدة سانتا إيسابل Santa Isabel . (انظر الشكل 99 ص 190).

زيادة على ذلك، إنّ قوس قصر السيد بدرو قد زيّن بأوراق اتخذت لها أشكالا دائريّة رسمت فيها مجسّمات مثل العروق المعدنيّة. ونشاهد مثل هذا في ساحة الأسود بقصر الحمراء في غرناطة. (انظر الشكل 100).

ومن الجوانب التي تميّز بها الفنّ النباتي الإسلاميّ الزخرفة الخشبيّة والنباتية الطبيعية. (انظر الشكل 99).

فهذا الشكل تميّز بفن صناعة الجصّ الطليطلي، كذلك الشكل 100 الذي يمتاز بالزخرفة الطليطلية.

وتبدو الخطوط الزخرفيّة الورقيّة واضحة في قصر تراتيشو، إذ أن ساق النبات يحتوي على خط أسود في التجاويف الموجودة عليه مما يجعلها جزءا من فنّ التزويق.

وقد أضاف الفنّانون رسومات لمفاتن أو محاسن الديوك والصور الخياليّة الطليطليّة، وهذه الرّسومات من إبداع هؤلاء الفنّانين منذ عهد مدينة الزهراء.

أمّا التركيبة الزخرفيّة النباتيّة أي الرّسم النباتي من أوراق وأغصان وأزهار، فإنّها ازدانت بكثير من الألوان، أبرزها اللّون الأصفر واللّون الأحمر، كما أنّها اهتمت باستخدام الرسم المرقّم، وبأشكال الأخاديد، وذلك للفصل بين الألوان المتقاربة مما يزيدها روعة وبهاء.

والرسم المرقّم عبارة عن أخاديد تنقش على مادّة من الجصّ وفي حالات أخرى تستخدم الخطوط الأخدوديّة لغاية الفصل بين الألوان المتقاربة كما أشرنا. وهذا النوع من الرّسم يبدو واضحا في قصر السيد بدرو.

وقد اعتمد أسلوب الزخرفة التصويرية بعدين هامين:

الأوّل : اتّبع التأثير الإسلاميّ واستخدم تقنيّة الجصّ.

والثاني : امتزج بالتأثير المسيحي وقد ازدانت الأفاريز والأطناف بصور الحسان التي لوّنت بالألوان الورديّ والأزرق والأحمر. أمّا صور الطيور فامتازت باستعمال الألوان: الأسود والأصفر والأخضر.

إن الأماكن التي تمّت دراستها فيما يخصّ الفنّ من رسم ونقش نباتي وتصوير الأشخاص ومختلف أنواع الطّيور، تمثّل صورة حسيّة لازدهار الحضارة العربيّة الإسلاميّة في إسبانيا.

ومن الشّواهد البارزة على ذلك (انظر الشكل 15 ص 248، وهو يمثّل رسومات عن القديسيّن) كنيسة سان أندرس. وهذه الرّسومات صنعت من الجصّ. كذلك اتّبع الشكلُ 151 في صالة العدالة بقصر الحمراء الرسمَ النباتيَّ الورديّ.

وبعد هذا العَرض الموجز الذي أبرز لنا مدى تأثير الفنّ الإسلامي الطليطلي تحت الحكم الإسباني، نلاحظ أنّ جميع هذه الأبواب تثبت بلا منازع أن الفصل الأول يرجع إلى المسلمين الذين عاشوا تحت الحكم الإسبانيّ. كما تبرز هذه الأبواب أن هذا الفن الإسلاميّ الذي انتشر في إسبانيا كان ذا طابع غرناطيّ. إن لمسة الفنّانين الغرناطيّين تركت طابعا واضحا في سائر أنحاء الأندلس وإسبانيا.

ومن المتأكّد أنّ انبهار الإسبان بروائع الفنّ في الحضارة الإسلاميّة لم يظهر جليًا إلاّ بعد زوال أسباب الحرب وأفول نجم الإسلام عن الديار الإسبانيّة.

وقد كانت طليطلة بموقعها الحصين أبرز المدن الإسلاميّة التي حظيت بهذا الاهتمام في العهد الإسباني من حيث الزخرفة الفنيّة وإبداع الفنّانين الطليطليين وازدهار المواهب العربيّة.

تقديم بحث :
المعارضات في الشعر الأندلسي في القرنين الخامس والسادس الهجريين) دراسة نقدية موازنة

للأستاذ يونس طركي سلوم البجاري
كلية الآداب - جامعة الموصل

قدّم الباحث دراسته بتمهيد حول الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية للأندلس، ووقف فيه على الأحداث السّياسيّة المعقّدة، التي انعكست آثارها على الحياة الاجتماعيّة والثّقافيّة، وكانت له وقفة متأنيّة عند روافد الثقافة الأندلسيّة المتنوّعة. وقسّم بحثه إلى ثلاثة فصول :

أما الفصل الأول : فقد تحدث فيه على مفهوم المعارضة وجذورها بالأندلس، وتناول فيه مفهومها في اللغة والاصطلاح، ثم وقف على الفرق بينها وبين فنون أدبيّة أخرى تلتقي معها من قريب أو بعيد، كالنقيضة والمحصة والمراجعة والمجارية، ثم بيّن الخيوط الأولى لمعارضة الأندلسيين في ميادين الحياة الثقافيّة والاجتماعيّة والحضاريّة الشاملة للمشارقة.

وفي هذا الفصل وقف عند دواعي المعارضات، محاولا التعرف على الأسباب الحقيقيّة التي دعت إلى المعارضة الشعريّة وجعلت منها ظاهرة تستحقّ الدرس، وجاءت هذه الدواعي على نوعين عامة وخاصّة. وفي الفصل الثاني : عرض كذلك لشعراء المعارضة في الحقبة التي سبقت القرن الخامس الهجري تجذيرا للظاهرة، وعودة إلى البواكير، وكانت وفقا للأغراض الشعريّة، فتصدرها المديح ثم أعقبها الوصف، والنوريات والمجون، والغزل وغيرها.

واختص الفصل الثالث بمعارضة الأندلسيين للمشارقة التي كانت نابعة من نظرة الإعجاب والإكبار للإنتاج الشعري المشرقي، حيث تعمقت جذور هذا الاتجاه أكثر من نظيره المتمثل في معارضة الأندلسيّين فيما بينهم، وحسب كثرة هذه المعارضات وقف عند المديح أولا، ثم أعقبه الغزل والوصف والشكوى وأغراض أخرى، وكان يقدم المعارضة التامة على الناقصة في تناوله للأغراض الشعريّة المتقدّمة.

أما الفصل الرابع : فتناول معارضات الأندلسيّين فيما بينهم، وفق المنهج الذي اتّبعه في الفصل السّابق، حيث عرض لموضوعات المعارضات حسب وفرة المادة، فكانت وقفته عند النوريات فالوصف فالمديح فالغزل فالرثاء ثم موضوعات أخرى.

ثم ختم البحث بالحديث عن النتائج التي تمخضت عنها الدراسة معززة بالملاحق الإحصائيّة.

الدّراسات الأندلسيّة في الجامعات العربيّة

هيئة التحرير

1 ـ ناقش السيّد خالد سقاط بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة شعبة اللّغة العربيّة وآدابها ـ جامعة سيدي محمد بن عبد الله ـ فاس ـ المغرب سنة 1992 رسالة عنوانها : «أخبار الفقهاء والمحدّثين بالأندلس لأبي عبد الله محمد بن حارث الخشني (ت 971/361): تقديم وتحقيق. وكانت لجنة المناقشة متركّبة من الدكتور علي الغزيوي (رئيسا) والدكتور عبد السلام الهراس مشرفا ومقرّرا والدكتور محمد مفتاح عضوا. ونجح المترشح بملاحظة حسن.

2 ـ ناقش السيّد عبد الرّحيم علمي بدرى بنفس الجامعة والكليّة والشعبة وفي نفس السّنة رسالة عنوانها : «لسان الدّين بن الخطيب والتصوّف». وكانت لجنة المناقشة متركّبة من الدكتور علي لغزيوي رئيسا والدكتور محمد السّرغيني مشرفا ومقرّرا والدكتور محمد مفتاح عضوا. ونجح المترشح بملاحظة حسن.

3 ـ ناقش بنجاح السيّد يونس طركي سليم البجاري بكليّة الآداب ـ جامعة الموصل ـ العراق سنة 1988 رسالة ماجستير عنوانها «المعارضات في الشّعر الأندلسيّ في القرنين الخامس والسّادس الهجريين : دراسة نقديّة موازنة». وكانت لجنة المناقشة متركّبة من الدكتور حازم عبد الله خضر رئيسا والدكتور منجد مصطفى بهجت مشرفا ومقرّرا والدكتور محمد قاسم مصطفى عضوا.

4 ـ ناقشت بنجاح السيّدة سمر صبحي أحمد بكليّة الآداب جامعة الموصل ـ سنة 1989 رسالة ماجستير عنوانها «ابن وهبون المرسي» : جمع وتحقيق ودراسة تحت إشراف الدكتور منجد مصطفى بهجت.

5 ـ ونوقشت بنجاح بقسم التاريخ ـ جامعة الموصل البحوث التالية :

ـ الحياة العلميّة والثقافيّة في الأندلس في القرن الرابع الهجري ـ حازم غانم حسين 1983.

ـ الرحلات العلميّة من الأندلس إلى المشرق عصر الإمارة 138-316. جعفر حسن صادق 1985.

(*) ننشر في هذا الركن كلّ ما يرد على المجلّة من أخبار البحوث بالجامعات العربيّة، المتعلّقة بالأندلس.

- الدولة المرينية في عصر أبي الحسن علي بن عثمان (731-752) دراسة حضارية. مزاحم علاوي 1985.

- الأندلس في عهد الحكم بن هشام (180هـ - 206 هـ) دراسة سياسية حضارية - هدية محمد حميد 1987.

- أحوال المغرب العربي بين استشهاد عقبة بن نافع 64 هـ وولاية موسى بن نصير 86 هـ. لمياء عزالدين 1987.

- دور بني عقبة بن نافع الفهري في أحداث المغرب - سلمان محمد سلمان 1989.

- تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي - دراسة في مضمونه العلمي - عزيز جاسم محمد 1989.

- عصر الولاة في المغرب العربي من 116 هـ - 156 هـ دراسة سياسية، أحلام صالح وهب 1989.

- دور المرأة العربيّة الأندلسيّة في الحياة العامة من الفتح حتى نهاية الخلافة الأموية، فائزة حمزة عبّاس، 1989.

- الحياة الفكريّة في عهد الأغالبة ، محب محمود قاسم 1989.

الفهرس العشري لمجلة «دراسات أندلسيّة»
(1993-1981)

الاستاذ : حسن المعتوبي
كلية الآداب ـ القيروان

مؤلف	عنـــــــــوان	التاريخ	العدد	ص ص
أعمال ملتقى ابن الآبار	أعمال ملتقى ابن الآبار بأتنة.	1989	2	5-5
آربي رشـال / تعـريب محمد القاضي	ابن حزم والحبّ العذري.	1988	1	64-40
آربي رشال.	وجه لامع من إسبانيا الإسلاميّة : عبد الرّحمان الثالث (بالفرنسيّة).	1993	10	8-5
أسكاتليـا أنغـريد بيخارانو.	مراجع تاريخيّة وجغرافيّة للرّحالة أبي حامد الغرناطي.	1992	8	28-18
إمام رشاد.	ابن الآبار وعصره في تونس.	1989	2	31-6
برامـــون دولورس / تعـريب فـرحـات الدشراوي.	المغرب من خلال كتاب الجغرافيا للزّهري.	1989	3	52-41
بكّار توفيق.	جدليّة المماثلة والمقابلة في «التّوابع والزّوابع» لابن شهيد. (القسم الأول).	1989	3	81-71
	جدليّة المماثلة والمقابلة في «التوابع والزّوابع» لابن شـهـيـد. (القسم الثاني).	1993	10	7-5
بهجت منجد مصطفى.	نقد النّص الشّعري بين ابن حزم وابن بسّام الأندلسيّين.	1990	5	36-5
برتـشـيـش إبراهيم القادري	ظاهرة الزواج في الأندلس إبّان الحقبة المرابطيّة من خلال نصوص ووثائق جديدة.	1992	9	22-9
بوزويتـسـة حـسـنـاء الطرابلسي.	استشعار نهاية الأندلس في ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي.	1990	5	57-37
	صورة الأندلس في شعر نزار قبّاني.	1988	1	76-65
تركي عبد الله بن عبد المحسن.	كلمة في المؤتمر العالمي الخامس للدّراسات الموريسكيّة.	1992	7	12-6
تليلي عبد الرّحمان.	ميشال سرفات والدورة الدّمويّة الصّغرى لابن النّفيس (بالفرنسيّة).	1992	8	17-11
جزّار منصف.	تحليل مقال أدبي (أدب حديث).	1991	6	86-83
جميع ـ محمد نجيب (بن).	أهميّة الأدب الألخميادو الموريسكي.	1991	6	65-59
حمّادي ـ عمر (بن).	قضيّة أبي عمر الطلمنكي الأندلسي.	1989	3	21-5
	كرامات الأولياء : النّقاش الحادّ الذي أثارته بالقيروان وقرطبة في أواخر ق. 4 / 10.	1990	4	60-35
	حول مرور إبن تومرت بالأندلس في طريقه إلى المشرق.	1991	6	26-6
حمارنة نشأت.	طبّ العيون في الأندلس.	1992	8	51-35

مؤلف	عنــــــوان	التاريخ	العدد	ص ص
خضراوي (الـ) مبارك.	أخبار ابن وهبون وبقيّة أشعاره (القسم الأوّل).	1993	10	56-42
دبّابي ميساوي سهام.	الطّبيخ الأندلسي (تقديم كتاب).	1991	7	71-66
	الخبز طعاما في الأندلس.	1992	4	83-73
دشراوي فرحات.	بين تونس وإسبانا أو المعجزة الأندلسيّة (تصدير).	1992	7	5-3
	مملكة إشبيلية في القرن 11/5 (القسم الأوّل).	1992	7	35-27
	مملكة إشبيلية في القرن 11/5 (القسم الثاني).	1992	8	11-6
رزّوق محمّد.	الأندلسيّون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 م و17 م.	1992	7	101-95
رمضان صالح (بن).	تقديم ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي.	1988	1	110-101
زبيدي (الـ) خميس جميل.	تقديم كتاب «الفنّ الطّليطلي تحت الحكم الإسباني».	1993	10	91-87
ساوري العبد العزيز.	فائت شعر أبي عبد الله بن الحدّاد الأندلسي.	1990	5	71-58
سليمان ـ فريد (بن).	تقديم «نفي الضّرر» لابن الإمام التّطيلي.	1992	8	81-80
سويسي محمّد.	فلسفة العلم العربي المعرفيّة الإبستيمولوجيّة.	1992	7	55-50
شبيل حبيب.	تقديم ديوان ابن الجنّان الأنصاري الأندلسي.	1990	5	87-82
شبخة جمعة.	الأندلس في شهادة الكفاءة (القسم الأوّل).	1989	3	70-61
	الأندلس ماضيا وحاضرا (تصدير).	1993	9	4-3
	التّشجيع في الميدان الثّقافي بين النّظري والتّطبيق (تصدير).	1990	4	4-3
	الجمعيّة التّونسيّة للدّراسات الأندلسيّة حلم ثان يتحقّق (تصدير).	1991	6	4-3
	القيمة الوثائقيّة لديوان ابن الأبّار.	1989	2	116-32
	النّدوات العلميّة بين الماضي والحاضر (تصدير).	1989	2	4-3
	الأندلس في شهادة الكفاءة (القسم الثاني).	1990	4	89-80
	الأندلس في شهادة الكفاءة (القسم الثالث).	1990	5	92-88
	الأندلس في شهادة الكفاءة (القسم الرابع).	1991	6	76-72
	الأندلس في شهادة الكفاءة (القسم			

مؤلف	عنــــــوان	التاريخ	العدد	ص ص
	الخامس).	1992	7	108-105
	الأندلس في شهادة الكفاءة (القسم السادس).	1992	8	79-76
	الأندلس في شهادة الكفاءة (القسم السابع).	1993	9	97-95
	دراسات أندلسيّة : تجسيم حلم (تصدير).	1988	1	4-3
	صدى سقوط غرناطة في الشعر الأندلسي.	1992	7	26-13
	في ذكرى سقوط غرناطة (تصدير).	1990	5	4-3
	قبس العزيمة من سبق التحدّي (تصدير).	1989	3	4-3
	الشمعة الخامسة. (تصدير).	1993	10	4-3
	منهجنا، مبادئنا، أخلاقنا (تصدير).	1992	8	4-3
	من مظاهر الشعوبيّة في الأندلس.	1990	4	34-25
صالح وائل (أبو).	جهود الحكم المستنصر في تطور الحركة العلميّة في الأندلس.	1991	6	44-27
طالبي محمد.	الحركة الدينيّة بالأندلس : القاعدة والشذوذ.	1992	7	48-44
طه ذنّون عبد الواحد	هل كان لأهل الأندلس ومسلمي غرب إفريقيا دور في اكتشاف العالم الجديد ؟	1993	10	41-25
	النص الشعوبي بالأندلس.	1990	4	24-6
طيبي أمين.	«إسبانيا الإسلاميّة» (تقييم كتاب لـ : ل.ب. هارفي).	1992	7	104-102
عاشور منصف.	في خصائص اللغة العربيّة بالأندلس.	1989	3	60-53
عبّود امحمد (بن).	تقديم أطروحة الأستاذ بوتشيش : «الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس».	1993	9	86-82
عريبي (ال) علي.	معارضات أخرى لابن سهل.	1990	4	75-61
عشّاب (ال) عبد الصمد.	التراث الأندلسي في مكتبة عبد الله كنون بطنجة.	1992	8	75-69
عمران كمال.	تحليل مقال أدبي (أدب قديم).	1991	6	82-79
عبّاري (ال) الشاذلي.	من أجل مشروع جديد للتّعاون شمال - جنوب. (القسم الأول بالفرنسيّة).	1993	9	27-19
	من أجل مشروع جديد للتّعاون شمال - جنوب. (القسم الثاني بالفرنسيّة).	1993	10	19-9
غديري (ال) مصطفى.	ابن مرج الكحل : حياته وشعره (القسم الأوّل)	1993	9	39-32
	ابن مرج الكحل : حياته وشعره (القسم الثاني).	1993	10	79-57
غراب سعد.	مسائل أندلسيّة إفريقيّة من القرنين 8 و 9/14 و15.	1988	1	32-7

مؤلف	عنـــــوان	التاريخ	العدد	ص ص
قاسم عبد العزيز.	لوركا فيدركو غرثيا. (شعر).	1988	1	39-33
تعيب حمودة.	ابن قزمان وتراثه الزّجلي.	1993	10	24-17
كارلوس خوان (ملك إسبانيا).	خطابه في المحفل التّأسيسيّ: «الأندلس» بمدينة الزّهراء (بالاسبانية).	1993	9	8-5
كرّو أبو القاسم.	التّعريف بمخطوط أندلسيّ نادر ونفيس.	1992	7	94-86
كوبيربي ميڤال ألخيل موراتينوس.	الأندلس في المستقبل: آفاق جديدة للعلاقات العربيّة الإسبانيّة (بالفرنسية).	1993	9	18-8
لاكي كلود.	البحر الأبيض المتوسّط واسبانيا والمغرب في ق 17 م: شراء المسيحيين وتجارة العبيد (بالفرنسيّة).	1992	8	40-29
لواتي علي.	أندلسيّة من ديوانه: «أخبار البئر المعطّلة». (شعر).	1990	4	79
ماجد جعفر.	جامع قرطبة (شعر).	1991	6	48-45
مريني (ال) نجاة.	التّعريف بمختصرات نفح الطّيب للمقّري.	1993	9	69-52
	عبد الله كنون: العالم المحقّق.	1993	10	86-80
مهداوي نجا.	في التّلاقح الثّقافي (بالفرنسيّة).	1992	8	10-6
هراس عبد السّلام.	شاعر وفي لوطنه.	1989	2	130-117
هيئة التّحرير.	الأندلس في حوليّات الجامعة التّونسيّة من العدد 1/1964 إلى 1988/28.	1990	4	78-76
	البيان الختاميّ للمؤتمر العالميّ الخامس للدّراسات الموريسكيّة الأندلسيّة.	1992	7	85-84
	الدّراسات الأندلسيّة في الجامعات العربيّة	1993	10	93-92
	تقديم أطروحات: مختار العبيدي - سحر السيّد - أبو يعرب المرزوقي.	1992	8	84-83
	تقديم أطروحة الأستاذ علي الغزيري: «مناهج النّقد الأدبي في الأندلس». مناهج كتب النّوازل المغربيّة	1993	9	94-87
	النّدوة القوميّة للدّرس الشّعوبي.	1990	4	5
هيلة محمد الحبيب.	والأندلسيّة في منتصف ق 5/11 إلى 9/15.	1993	9	31-23
ودغيري عبد العلي.	البحث العلمي نزاهة أو لا يكون: «كتاب والنّشاط المعجمي بالأندلس...».	1993	9	81-70
وراكلي (ال) حسن عبد الكريم.	من المستدرك على ديوان الرّصافي البلنسي.	1993	10	16-8
وهايبي (ال) منصف.	أ - مقاربة الممتع المفيد في نظريّة الشّعر عند حازم القرطاجنّي (القسم الأوّل).	1992	8	68-52

مؤلف	عنـــــوان	التاريخ	العدد	ص ص
وهايبي. (ال) منصف.	ب. مقاربة الممتع المفيد في نظرية الممتع المفيد عند حازم القرطاجني (القسم الثاني).	1993	9	51-40
يعقوبي (ال) الحسين.	أ. قصائد غير منشورة في الاستصراخ والإصراخ. (القسم الأول).	1990	5	81-72
	ب. قصائد غير منشورة في الاستصراخ والإصراخ. (القسم الثاني).	1991	6	58-49
	في الفكاكة والفكاكين.	1992	7	72-56
	في الموشحات الأندلسية في مقدمة ابن خلدون.	1992	8	34-12
	الفهرس العشري لمجلة «دراسات أندلسية» 1988-1993.	1993	10	98-94
يعلاوي (ال) محمد.	تراجم أندلسية منتقات من كتاب المقفى للمقريزي.	1988	1	100-77
	ملاحظات حول تراجم الأندلسيين في كتاب المقفى للمقريزي.	1992	7	43-37

بســـم اللـــه الـــرحمـــان الـــرحيـــم

ندوة (الأندلس : قرون من التقلبات و العطاءات)

بمشيئة الله تعالى تقيم مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ندوة بعنوان (الأندلس : قرون من التقلبات و العطاءات) خلال الفترة 15 - 19 جمـــادى الأولى 1414 هـ الموافق 30 أكتوبر إلى 3 نوفمبر 1993 م .

و ستدور أعمال الندوة حول المحاور التالية :

1 - خاصية التجربة الأندلسية و مكانتها المميزة دينيا و سياسيا و اجتماعيـــا و اقتصاديا و علميا، و تأثيرها على المستوى المحلي و الإقليمي و العالمي.

2 - تقييم التجربة الأندلسية ازدهارا و قوة و ضعفا و أثر ذلك على الجوانـــب المذكورة في المحور الأول.

3 - مناقشة الدراسات التي تناولت التجربة الأندلسية و اقتراح ما يمكن التوجه إليه من دراسات في هذا المجال.

و سيشارك في هذه الندوة بإلقاء بحوث حول المحاور السابقة نخبة مـــن الأساتذة المختصين في الدراسات الأندلسية من المملكة العربية السعودية و من العالم العربي و من خارجه.

و يمكن مساعدة من يرغب في حضور الندوة، دون القاء بحث في الحصـــول على تأشيرة دخول إلى المملكة العربية السعودية و كذلك تأمين سكن بأجر مخفض . /

رئيس الندوة
فيصل بن عبد الرحمن المعمر
مدير مكتبة الملك عبد العزيز العامة

prise moderne.

Ceci signifie aussi que l'avenir de l'entreprise méditerranéenne ne peut être exclusivement méditerranéen. En ce sens que les Maghrébins et les Machrékins ont besoin de s'exposer aussi à la culture d'entreprise anglosaxonne et sud-asiatique plus avancée.

Il reste, cependant, que l'apport que les entreprises euro-méditerranéennes développées pourraient faire dans ce domaine à leur homologues du Sud de la "Mare Nostrum" est loin d'être négligeable.

Avoir choisi d'inscrire le Projet Nord-Sud méditerranéen autour de l'"entreprise productive est un choix délibéré. C'est par elle qu'il y aura ou qu'il n'y aura pas création de richesse. C'est elle qui nous semble capable de créer, mobiliser, utiliser au mieux les ressources productives-naturelles, financières, humaines, intellectuelles-disponibles chez les Uns et chez les Autres;

A l'heure où les Systèmes politiques comme les systèmes économiques se libéralisent, où les moyens d'intervention des Etats diminuent, où le défi du développement devient une affaire de créativité, d'imagination et d'innovation permanentes, où les échanges libres entre les produits, les techniques, les technologies, les savoir-faire et les intelligences constituent la base même du Progrès, l'entreprise comme nous l'avons défini plus haut ne peut être que le centre moteur de toute coopération future entre les 2 rives de la Méditerranée.

Que l'impulsion politique à tous les niveaux de la hiérarchie de décision - et pas seulement au niveau des Sommets des Chefs d'Etat - soit toujours nécessaire pour soutenir cette dynamique d'entreprise, il n'y a guère de doute à cela.

Mais si jamais le Pouvoir Politique veut imposer ses propres vicissitudes et ses "sautes d'humeur" à la vie de l'entreprise, celui-ci, si elle répond aux normes décrites dans cette analyse, saura toujours lui résister ./.

d'autres apports positifs certains.

Il reste, cependant, que ce partenariat-là, si important qu'il soit pour des pays affectés d'un chômage structurel bien lourd, ne répond pas au défi essentiel qui confronte l'entreprise au sens que nous lui avons doné, c'est-à-dire comme moteur du Projet de Coopération méditerranéenne tel que nous l'avons défini plus haut.

B.3. Les actions communes à entreprendre

Pour ce faire, il nous semble que 4 catégories d'action pourraient être envisagées:

-intégrer la coopération inter-entreprises dans un espace, dans un réseau relationnel constitué de noyaux de productions et de recherches appliquées couvrant toute la chaîne : de la conception du produit, à sa fabrication, à sa commercialisation. En d'autres termes, il s'agit de créer des parcs d'entreprises ou des parcs industriels ou des parcs technologiques ou des technopoles.

- faire de ces nouveaux espaces des espaces d'apprentissage et de formation à tous les niveaux d'ouvriers et de cadres.

- associer pleinement les activités des projets communs aux stratégies productives technologiques, financières et commerciales des sociétés-mères européennes.

- introduire dans les entreprises communes une nouvelle culture des rapports sociaux entre les différents participants à la vie de celles-ci. En reformant la philosophie et les procédures du recrutement, de la promotion, de la rémunération, de la sanction de la réussite (et de l'échec), de la division des tâches, de la couverture sociale, de la revendication des droits, on crée un nouveau type d'attitude relationnelle entre le Travail, la Gestion, le Capital et l'Entreprise.

Il est vrai que dans ce domaine, ni la France, ni l'Italie, ni l'Espagne, comparées à l'Allemagne ou au Japon, ne sont des figures de proue. La latinité dont est empreinte leur méditerranéité véhicule jusqu'à présent des attitudes d'autoritarisme, de hiérarchisation, de mandarinisme et des préférences pour le secret et l'opacité devenues de plus en plus incompatibles avec les exigences de l'entre-

B.2. Pour une nouvelle approche du partenariat

En partant de l'analyse ci-dessus, on peut, légitimement, se demander si les modalités de "coopération" présente entre entreprises euro-méditerranéennes (françaises, italiennes et espagnoles) et entreprises arabo-méditerranéennes - notamment maghrébines (tunisiennes et marocaines) -, ce que l'on appelle communément le partenariat, répondent ou non à ce besoin de réduire le gap culturel dont nous parlions plus haut.

La réponse est non. En effet, ni le contenu des partenariats (industriels pour l'essentiel) actuellement en vigueur, ni les objectifs inscrits dans les projets réalisés en commun ni l'impact (les effets d'entrainement) produit par ces projets sur l'économie générale du Maroc ou de la Tunisie ne vont dans le sens souhaité. Quand ces partenariats se limitent à fabriquer à bon marché des biens d'habillement destinés à l'exportation où la seule valeur ajoutée maghrébine est les bas salaires payés aux ouvrières de nos pays, sans apports technologiques, ni formation technique appréciable, ni participation des projets "locaux" aux stratégies industrielles des sociétés-mères européennes ; quand ces partenariats ne concernent que des industries légères - comme les industries textiles et d'habillement - pauvres en valeurs ajoutées, pauvres en technologies, pauvres en savoir-faire, pauvres en perspectives d'avenir, il s'agit alors de partenariats "rentiers", basés sur 5 types de rentes que les pays en développement offrent aux investisseurs étrangers sans contreparties adéquates: la rente des bas salaires, la rente de la stabilité sociale, la rente des infrastructures gratuites, la rente des dégrèvements fiscaux et des avantages de change et enfin, la rente de situation (proximité des centres de production maghrébins par rapport aux marchés d'exportation européens).

Il serait injuste et contraire à la réalité de nier tout apport à ce type de partenariat pratiqué depuis près de 20 ans entre la Tunisie et le Maroc d'un côté et des pays européens comme la France, l'Italie, l'Allemagne ou la Hollande de l'autre.

Grâce à ces "joint-ventures", des dizaines de milliers d'emplois (féminin pour l'essentiel) ont été créés en Tunisie et au Maroc. Par ailleurs, le partenariat, même sous sa forme imparfaite, a permis à ces 2 derniers pays d'accentuer leur libéralisation économique et leur ouverture sur le monde extérieur, en plus

Un musée qui permet à ses visiteurs d'apprécier les trésors qu'il renferme est **une entreprise** (culturelle).

Enfin, un gouvernement qui assure aux citoyens la Sécurité -y compris la sécurité économique et sociale -, la justice, l'ordre, l'équité dans la répartition du Revenu national est **une entreprise** (politique).

En tant que centre de production au sens donné plus haut, l'entreprise qui ne peut être que productive (sinon elle perd son identité même) est au cœur même de la vie et du développement de la Nation.

- **C'est également un microcosme social** où s'organisent des relations entre des hommes (et des femmes) et des outils de production. En tant que telle, l'entreprise ici confronte en fait 2 types de rapports possibles: soit des **rapports de force**, ou des rapports conflictuels au sens marxiste du terme, soit **des rapports de participation**, de congestion, voire de convivialité, entre les différents détenteurs du pouvoir de produire: les titulaires de la force du travail manuel, les titulaires de la force de travail qualifié, les titulaires du pouvoir de gestion et de direction et enfin, les propriétaires du capital productif;

- **C'est enfin, le lieu par excellence du progrès ou de la régression, de la création ou de la stagnation.** En effet, appelée à satisfaire des besoins matériels et non matériels sans cesse croissants et sans cesse diversifiés, l'entreprise qu'elle soit industrielle ou agricole ou de service ou culturellle ou politique se trouve confrontée à des exigences de recherche, d'adaptation, de mutation et d'innovation auxquelles elle répond bien, mal ou pas du tout.

Ces 3 dimensions essentielles de l'entreprise - à savoir qu'elle est un Centre de production ; un microcosme social conflictuel ou coopératif ; et enfin, un lieu de progrès ou de régression définissent en fait **2 grands types de culture d'entreprise**: une culture d'entreprise dynamique, ouverte, coopérative, évoluée et une culture d'entreprise parasitaire, hégémonique, répressive et stagnante.

Il est évident que l'entreprise euro-méditerranéenne est plus proche de la 1ère forme de culture et que l'entreprise orientalo-méditerranéenne et plus particulièrement arabo-méditerranéenne est plus proche du 2ème type de Culture.

Tant que pareil "gap culturel" persiste entre l'entreprise chez les Uns et l'entreprise chez les Autres, aucun Projet de coopération méditerranéen n'a de chances de voir le jour encore moins de perdurer.

commun solidaire et intégré.

Certes, l'hiatus qui sépare le niveau de développement des pays du Sud méditerranéen de celui du Nord méditerranéen exclut certains vieux adages que l'on rencontre souvent dans le vocabulaire de la coopération, telles la notion de coopération **"d'égal à égal"** ou la notion de coopération sur la base d'avantage ou d'intérêts **équilibrés.** La réciprocité et la mutualité ne signifient nécessairement ni l'égalité, ni l'équilibre des avantages ou des intérêts dans la coopération Nord-Sud. Elles indiquent plutôt - et ce n'est pas négligeable - que l'action commune aux coopérants doit être basée sur un **échange** de valeurs essentiellement mais non exclusivement économiques ou matérielles - un échange qui crée un courant d'apports utiles et évolutifs entre les partenaires du Nord et les partenaires du Sud.

C'est ce courant d'avantages et d'apports mutuels utiles et évolutifs qu'il faudrait concevoir et renforcer dans le cadre du Projet Méditerranéen futur.

Nous pensons, pour notre part, que ce courant d'avantages et d'apports pourrait être organisé autour d'un axe principal: **celui de l'entreprise productive.**

B) L'axe de l'entreprise productive

B.1. L'entreprise comme une culture

Dans notre conception, l'entreprise possède 3 dimensions essentielles:

- **C'est un centre de production** de biens matériels ou non matériels. Le vocable "bien" signifie plus que le "produit". Il veut dire en réalité "richesses", c'est-à-dire toute valeur susceptible d'accroître le bien-être économique, social, culturel, voire politique des individus et plus globalement de la Nation toute entière. Le concept "d'entreprise" s'applique donc à toute production de richesses physiques (biens industriels, biens agricoles ou alimentaires, services divers) ou de richesses non physiques (bien culturel, bien social, bien politique); Une usine de fabrication de matériaux de construction est **une entreprise** (industrielle).

Une exploitation qui produit des céréales est **une entreprise** (agricole).

Un hôtel qui offre des nuitées et des séjours à des touristes est **une entreprise** (de service).

de "Lokerbie".

- La stabilisation de la situation politique en Algérie.

- L'organisation d'un Sommet de l'U.M.A. avec la participation de tous les Chefs d'Etat du Maghreb.

Quelque part, au cours de la 2ème moitié de l'année 93, des rencontres entre les Chefs d'Etat des 2 rives pourraient être organisées.

En 2ème lieu, la politique ne se limite pas aux seuls Sommets de Chefs d'Etat - si importants soient-ils -. **Au niveau des Gouvernements d'abord**, rien n'empêche des réunions alternées dans des capitales arabes et dans des capitales européennes entre les Ministres des Affaires Etrangères, les Ministres d'Economie, de Finances, d'Agriculture, des Affaires Sociales etc. des pays des 2 rives de la "Mare Nostrum".

De nombreux dossiers politiques, économiques et techniques pourraient y être débattus et peut-être résolus. **Au niveau des institutions ensuite**, les rencontres entre les Parlements, entre les Partis politiques, entre les Syndicats et entre d'autres organisations nationales - y compris entre des jeunes - des pays concernés seraient éminemment positives. Le débat institutionnel qui se développerait alors permettrait de confronter des sensibilités, des préoccupations et des domaines d'action communs auxquels les Exécutifs n'accordent pas toujours la priorité requise.

Pareilles rencontres institutionnelles exigent moins de préalables que les Sommets ou même les réunions ministérielles. Elles pourront donc démarrer au début de l'année prochaine.

III.3. La coopération, une affaire d'avantages mutuels

A. La signification des avantages mutuels.

Le principe de toute coopération viable, permanente et sans cesse renouvelée est qu'elle soit construite sur la base d'avantages mutuels entre les partenaires. Si cette base fait défaut, la coopération devient en fait, une assistance d'une partie à une autre, c'est-à-dire, un type de rapports fondamentalement instables, aléatoires et donc fragiles. Pour être possible, productif et solide, le Projet méditerranéen doit être conçu autour d'intérêts réciproques et d'avantages mutuels. Plus ceux-ci se renforcent, progressent et se diversifient et plus l'éclatement méditerranéen décrit plus haut se réduit pour donner lieu à un espace

semble de processus démocratiques internes à chaque Nation européenne et reflétés dans l'approche communautaire telle qu'elle est exprimée par la Commission de Bruxelles.

Nous pensons **que l'Europe n'a pas encore choisi de s'engager dans la voie d'un Projet méditerranéen au sens plein du terme c'est-à-dire un Projet Commun pour le Développement Commun.** Les raisons en sont multiples. La conjoncture politique et économique européenne, euro-américaine et euro-mondiale, comme nous l'évoquions plus haut, en est la première cause. Les incertitudes politiques et les pesanteurs démographiques, sociales, économiques et culturelles affectant le présent et l'avenir de nombreux pays de la Méditerranée arabe en sont la deuxième cause.

Enfin, la préoccupation des Chancelleries occidentales par les projets d'approfondissement de l'Europe Communautaire sur ses deux flancs Est et Nord en sont la troisième cause.

Ainsi, l'impasse politique est totale ou presque. Comment y remédier? A notre sens, 2 propositions peuvent être avancées.

En 1er lieu, le projet du Sommet des 5+5 est devenu un projet un peu mythique ou symbolique. En politique, quand les mythes et les symboles font obstacle à l'action, il faut alors s'en défaire. A l'heure présente et dans l'avenir prévisible, le Sommet de 5+5 n'est pas faisable. Il ne faudrait plus y penser. Si **Sommet** il doit y avoir **pour initier** le grand Projet méditerranéen - nous ne le pensons pas pour notre part - il pourrait bien se tenir à toute autre échelle réduite, c'est-à-dire entre les Chefs d'Etat des pays des 2 rives disposés à se rencontrer à cet effet. En imaginant ces rencontres au Sommet sous la forme de réunions de travail - à la limite informelles et non gravement solennelles - on faciliterait la tâche à tous. Notre lecture de la conjoncture politique présente et dans les mois qui viennent tant en Europe qu'au Maghreb, nous laisse penser que tout projet de rencontre de ce type ne pourrait utilement avoir lieu qu'après:

- Les prochaines élections législatives françaises de mars 1993:

- la ratification du Traité de Maastricht par la Grande Bretagne et le Danemark au printemps 1993.

- Le retour de l'Europe à une ère de croissance généralisée et soutenue.

- La solution - que nous souhaitons prochaine - de l'affaire libyenne, dite

tionales et non les seuls gouvernements - sont seules susceptibles de faire ou de ne pas faire.

Dans notre Méditerranée arabe, nous ne savons pas jusqu'où le choix européen est national ou pas. Au Maghreb par exemple, même au niveau des Exécutifs, l'option européenne n'est pas évidente partout, ou en tout cas, n'est pas exprimée avec la même force partout. Cela va de la demande marocaine d'intégration à la CEE comme pays membre ! jusqu'au rejet total libyen de toute coopération avec l'Europe en passant par la "froideur" algérienne vis à vis de cette même Europe et par l'enthousiasme tunisien pour renforcer ses liens avec la CEE.

A ces approches différentes*, il y a bien sûr des raisons historiques, politiques et économiques propres à chaque nation maghrébine. Notre propos ici n'est pas de les analyser. Mais en constatant pareilles divergences, nous posons en même temps le problème de la volonté politique maghrébine commune de s'engager ou non dans un Projet méditerranéen global futur.

Dans des sociétés où le pluralisme institutionnel est au mieux balbutiant, il serait bien difficile d'instaurer un débat démocratique sur le choix européen. Mais une consultation institutionnelle (Parlements, partis politiques, organisations nationales, etc...) - si limitée soit-elle - et même populaire (par voie de référendum) ne serait pas inutile.

Une telle consultation contribuerait à décanter les positions au sein du Maghreb, la confusion actuelle quant au sens de l'engagement européen du Maghreb en tant qu'ensemble , ajoutée à la dégradation des relations politiques internationales de certains pays de la région, n'est pas étrangère au blocage du fameux Sommet 5+5 dont on a tant parlé et dont on a fait - à tort, à notre sens - la condition première de toute coopération entre la rive maghrébine et la rive européenne de la "Mare Nostrum".

Mais la volonté politique ne sera réellement commune que si l'autre partenaire, en l'occurence le partenaire européen, est lui aussi fermment décidé à s'engager dans ce Projet méditerranéen Nord-Sud. Là, les données sont différentes. Le choix ou le non choix méditerranéen de l'Europe sont institutionnels, c'est-à-dire décidés non par des gouvernements seuls mais déterminés par un en-

---

(*) Ces approches différentes existent aussi au niveau de l'Union du Maghreb Arabe.

tique et économique planétaire et en réponse aussi aux défis que lui posent les nouveaux grands ensembles en formation, tels l'ensemble nord-américain-latino-américain (constitution d'une zone de libre échange entre les Etats-Unis, le Canada et le Mexique) ou l'ensemble Asiatique (Japon+ pays de l'Asie du Sud-Est) ou l'ensemble "Bassin du Pacifique" (Etats-Unis, Japon, Australie, Nouvelle Zélande, Amérique Latine).

Et il serait mal venu et totalement injustifié que les Méditerranéens du Sud prennent ombrage de ce mouvement de désenclavement et d'élargissement que l'Europe Communautaire mène à l'Est comme au Nord pour se donner une nouvelle masse critique sans laquelle elle ne pourra pas accéder au statut de partenaire mondial. Sauf, bien sûr, si pareil mouvement entraîne une marginalisation accrue de la Méditerranée orientale et en particulier de sa composante arabe.

Ceci dit, dans quelles bonnes voies pourrait-on engager le Projet Nord-Sud méditerranéen, compte tenu de tout l'environnement décrit plus haut ?

II.2. La préalable politique

La coopération pour le Développement - celle qui devrait être le fondement de tout le Projet Méditerranéen futur - ne peut être que le produit d'une **volonté politique commune** à tous les partenaires. La marche irréversible de la CEE vers davantage d'intégration, davantage d'union malgré les crises et les conflits d'intérêts nous fournit là une illustration plus qu'évidente. La volonté politique commune qui donne aux relations internationales leur contenu et leur permanence ne peut être que **d'essence démocratique.** En d'autres termes, elle doit être le produit **d'un débat institutionnel** - aussi large que possible - au sein de chaque nation concernée. Quand la volonté politique change au gré des humeurs des Chefs d'Etat et des Gouvernements, elle devient instable, imprévisible. Le grand homme d'Etat et penseur africain, Léopold Sédar Senghor, qualifie les Arabes comme les Africains de cet épithète si imagé de **"fluctuant".**

Le monde arabo-méditerranéen est un monde "fluctuant" parce que le fonctionnement de ses institutions est grippé.

Sil y a choix européen au niveau du Maghreb et du Machrek, il faut qu'il soit **national,** c'est-à-dire produit par un choix **de société** que les institutions na-

Pourtant, la conclusion prochaine des négociations du GATT ajoutée à l'avènement du Marché Unique, aux dérapages économiques et sociaux provoqués par les politiques de libéralisation dans de nombreux pays de la Méditerranée arabe notamment et aux problèmes structurels de la croissance et du développement dans ces pays-là confère au dossier méditerranéen un caractère plus urgent que jamais.

Non que la coopération entre le Nord et le Sud de la "Mare Nostrum" soit en mesure de résoudre à court ou même à plus long terme tous les éclatements et tous les déséquilibres décrits plus haut. Mais l'engagement **dans la conjoncture présente** du dialogue euro-méditerranéen sur une base rénovée, solide, globale, sur une base de développement concertée et non moyennant des ajustements aux accords "d'association" actuels représente le tournant nécessaire et souhaité dans les relations entre les 2 rives du Bassin;

Quand l'Europe prendra totalement conscience que son "ventre mou" est justement la Méditerranée du Sud et que sa vocation de puissance planétaire est indissociable de sa dimension méditerranéenne; quand par ailleurs, les pays de la Rive Sud - et plus encore les pays arabes du Maghreb et du Machrek - prendront également conscience qu'ils devront se réorganiser et se restructurer pour donner au concept de **la Méditerranéité** toute sa "praxis", alors, les chances seront là pour que le dossier méditerranéen soit engagé - et engagé dans la bonne voie -.

"L'approfondissement" de la CEE vers son flanc Est (ex-Europe Communiste) et vers son flanc Nord, n'est pas incompatible avec un "approfondissement" vers son flanc Sud méditerranéen. Ils sont même **stratégiquement complémentaires:**

Que "l'approfondissement" prenne la forme d'une intégration totale au sein de la CEE - comme cela sera le cas dans un avenir proche pour l'Autriche, la Suède - ou la forme d'une création d'un Espace Economique Européen - comme cela est le cas des futures relations CEE - Pays dis de "l'Association Européenne de Libre Echange"* ou de relations particulèrement privilégiées. avec l'ex-URSS et les pays de l'Europe communiste, la C.E.E. a raison de chercher ses nouvelles marques et ses nouvelles dimensions en réponse à sa vocation de puissance poli-

(*) Les pays européens appartenant à "l'Association de Libre Echange" sont: la Suisse, la Finlande, l'Autriche, la Suède, l'Islande, la Norvège.

Pour un projet Nord-Sud Méditerraneen

Par Chedly AYARI

Professeur à l'Université de Tunis

(Deuxième partie)*

II. Pour un nouveau projet méditerraneen: Un modèle de cooperation Nord-Sud.

II.1. "L'urgence" du Projet Méditerranéen

L'état des lieux brièvement esquissé ci-haut nous montre que chaque déficience, chaque disparité, chaque inégalité est un **Enjeu** pour tous les partenaires des 2 rives de la "Mare Nostrum". Le vocable "Enjeu" a 3 significations. **D'abord**, il décrit des réalités douloureuses, des déséquilibres profonds et de niveaux de vie disparates. **Ensuite**, il montre des vecteurs de conflit actuels ou latents... **Enfin**, il indique les domaines de coopération possible et souhaitable.

Que l'actualité de tout Projet Méditerranéen pâtisse aujourd'hui des querelles européennes autour du Traité de Maastricht ou autour de l'avenir du Système Monétaire Européen, ou même de l'avènement du Marché Unique Européen le 1er janvier 1993 ou qu'il pâtisse des différends euro-américains autour des négociations du GATT, cela est une réalité bien évidente. Il est vrai aussi que l'instabilité et les incertitudes prévalant dans certaines parties du Maghreb et du Machrek contribuent largement à atténuer dans une mesure non négligeable "l'urgence méditerranéenne" dans les priorités proprement européennes. Le renvoi "sine die" du projet du Sommet dit 5+5 en est bien l'illustration. Il est non moins vrai aussi que l'horizon économique et politique d'un certain nombre de pays européens reste encore trop chargé en France, comme en Allemagne, comme en Italie, en Grande-Bretagne ou en Espagne pour que les Chancelleries européennes accordent au Projet méditerranéen toute l'attention qu'il mérite.

* Première partie dans "Etudes Andalouses" n° 9/1993 p. 19.

saison dans des villas situées à l'extérieur de la ville. Au milieu de son règne, al-Nâsir fit bâtir une nouvelle résidence à cinq kilomètres au Nord-Ouest de Cordoue, dans un site d'où l'on a une vue étendue sur la vallée du Guadalquivir. Madînat al-Zahrâ', du nom d'une des favorites du calife, fut une véritable cité royale dont la construction entreprise en 325/936 allait durer de treize à quarante ans, selon les historiens arabes; Une ville administrative et une cité commerçante furent organisées dans la partie basse de Madînat al-Zahrâ' où, à l'imitation de Cordoue, il y avait un cadi, un préfet de police, un gouverneur : une partie de la milice califienne logeait dans une caserne. Une armée d'artisans fut employée; on utilisa dans les grands salons de réception les matériaux les plus précieux: l'onyx de la région de Málaga, le marbre blanc d'Andalousie. Les colonnes de marbre rose et vert furent importées d'Ifrîqiya, de l'église de Sfax. D'Orient, le prélat mozarabe Rabî' ibn Zayd rapporta une grande vasque de marbre sculpté et doré et une fontaine ornée de bas-reliefs représentant des figures humaines; le tout fut exécuté en Syrie et transporté en Espagne. Le calife fit surmonter cette fontaine de douze statues d'or rouge rehaussé de pierres précieuses, fabriquées dans les ateliers de Cordoue. On installa dans le palais une immense volière remplie d'oiseaux rares et une ménagerie de fauves amenés d'Afrique. Aujourd'hui encore, des fouilles et de remarquables restaurations attestent la splendeur de Midînat al-Zahrâ', ce "Versailles umayyade", pour reprendre l'expression d'Evariste Lévi-Provençal.

A la mort d''Abd al-Rahmân III en 350/961, après un règne brillant d'un demi-siècle, le pouvoir des Umayyades d'Espagne avait atteint son apogée. Al-Nâsir laissait à son fils al-Hakam II un Etat riche et prospère. Grâce à son œuvre féconde, Cordoue rivalisait de prestige avec d'une part Kairouan et les métropoles de l'Orient musulman, avec Constantinople d'autre part

Bibliographie

Ibn Hayyan, Al-Muqtabas V, ed. P.CHALMETA, F.CORRIENTE; M. SUBH, Madrid, 1979.

Ibn Hayyan, Crónica del Califa 'Abdarrahmân III an-Nasir entre los años 912 y 942 (al-Muqtabis V), traducción, notas e índices por Mª J.VIGUERA y F.CORRIENTE, Saragosse, 1981.

E.LÉVI-PROVENÇAL et E.GARCIA GÓMEZ, Uona Crónica anónima de 'Abd al-Rahmân III al-Nasir, édition et traduction, Madrid-Grenade, 1950.

E.LÉVI-PROVENÇAL, Histoire de l'Espagne musulmane, t.II, Paris, 1950, pp. 1-164.

spirituel de la communauté musulmane. 'Abd al-Raḥmân III présida lui-même la prière solennelle du vendredi, jugea des affaires du royaume en dernier ressort, frappa monnaie en son nom. Dans le domaine de la politique étrangère, renouant avec la tradition inaugurée un siècle plus tôt par son ancêtre 'Abd al-Raḥmân II, al-Nâsir établit avec l'empereur de Byzance, Constantin VII des relations officielles qui se poursuivirent jusqu'en 338/949 et se traduisirent par un échange d'ambassades et de somptueux cadeaux. Il reçut également les envoyés de l'empereur Otton Ier de Germanie et du comte franc de Barcelone.

'Abd al-Raḥmân III était incapable de fanatisme. Au cours d'entretiens avec ses courtisans, le calife, fils d'une captive chrétienne, n'hésitait pas à délaisser l'arabe pour la langue espagnole. Il fit preuve à l'égard de ses sujets non-musulmans d'une tolérance et d'une largeur de vues qui suscitent l'admiration. Durant son règne, Chrétiens et Juifs purent prospérer; ils lui témoignèrent affection et fidélité. Deux exemples sont particulièrement significatifs. Rabî' Ibn Zayd, de son nom de baptême Recemundo, était un Chrétien de Cordoue cultivé. Secrétaire dans les bureaux de la chancellerie umyyade, il maniait l'arabe aussi bien que le latin. 'Abd al-Raḥmân III l'envoya comme légat dans l'empire germanique et à la cour de Constantinople; il s'acquitta de sa tâche avec tant de zèle qu'al-Nâsir obtint pour lui l'évêché de la petite ville andalouse d'Elvira. Parmi les dignitaires de la cour cordouane figurait à la direction d'un service financier Hasdây Ibn Shaprût, un Juif originaire de Jaén qui possèdait une vaste culture; il connaissait l'arabe, l'hébreu, le latin, le grec et les parlers romans. Il servait d'interprète lorsqu'une ambassade chrétienne arrivait dans la capitale. Il se chargea de traduire en arabe le traité de matière médicale de Dioscoride envoyé à al Nâsir par l'empereur de Byzance Constantin VII. A la fois médecin réputé et bon diplomate, il remplit avec succès une difficile mission en terre chrétienne où il sut guérir de son obésité le roi Sancho 1er de Leon et obtenir de sa grand-mère, la vieille reine Toda de Navarre la cession de dix places-fortes, en échange de l'alliance conclue avec Cordoue. Grâce à la protection du calife, Ḥasdây exerça son mécenat parmi les Juifs de l'Espagne musulmane; la symbiose judéo-arabe se manifesta alors dans la production intellectuelle.

Comme les autres rois de la dynastie umayyade, 'Abd al-Raḥmân III fut un grand bâtisseur. Il fit construire dans l'Espagne califienne des monuments religieux et des ouvrages d'utilité publique dont on regrette la destruction. A Cordoue même il fit élever l'imposant minaret de la Grande Mosquée, - qui abrite l'actuelle cathédrale -, à l'imitation des minarets syriens; il fit restaurer la façcade de l'édifice et percer une nouvelle porte dans l'enceinte de la capitale. Non seulement il fit agrandir le palais royal de Cordoue mais il se plut à résider à la belle

'Abd al-Raḥmân III lutta pendant deux ans pour venir à bout de la ville en 320/932.

La politique extérieure de 'Abd al-Raḥmân III fut conduite avec vigueur : elle fut marquée par une offensive contre l'Espagne chrétienne et une lutte d'influence avec les Fâtimides en Afrique du Nord. En 312/924, 'Abd al-Raḥmân III saccagea la capitale de la Navarre, Pampelune, gouvernée par le roi Sancho Garcès 1er; il s'opposa au roi de Léon, Ramiro II, ennemi dangereux pour l'Islam andalou. Malgré une défaite des Cordouans à la bataille dite du "fossé" de Simancas, en Vieille-Castille (327/939), 'Abd al-Raḥmân III parvint à rétablir la situation en 340/951. Par de continuelles razzias, les officiers de l'armée umayyade semaient le désordre à la frontière hispano-chrétienne. Aussi le roi de Léon, Ordōno III, fut-il contraint de conclure une trêve avec le souverain de Cordoue en 344/955. Son frère et successeur, Sancho 1er, expulsé du royaume de León, dut se réfugier à la cour de Cordoue pour y rendre hommage à 'Abd al-Raḥmân qui l'aida à récupérer son trône en 349/960.

En Afrique du Nord, 'Abd al-Raḥmân III poursuivit une politique de prestige et essaya de combattre au Maroc l'influence des nouveaux maîtres de l'Ifriqiya (l'actuelle Tunisie), les Fâtimides dont les visées sur son propre royaume l'inquiétaient. L'Umayyade fit occuper Melilla en 314/927 et Ceuta en 319/931. Il annexa Tanger en 339/951 et versa des subventions à une grande partie des tribus zénètes du Maghreb central. Il réussit ainsi à établir une sorte de protectorat sur le Nord et le Centre du Maroc.

La puissance de 'Abd al-Raḥmân III s'illustra par la restauration du califat à Cordoue. Fort de la réputation que lui avaient value ses exploits guerriers, 'Abd al-Raḥmân adopta en 316/929, après la prise de Bobastro et à l'exemple de ses ancêtres, les Umayyades de Damas, les titres de calife et de prince des croyants. Il ajouta à son nom le surnom honorifique d'al-Nâṣir li dîn-i-llâh, "celui qui combat victorieusement pour la religion d'Allâh." Il s'entoura d'une aristocratie palatine composée de ses proches parents, il se fit servir par une nombreuse domesticité. Le calife mena dès lors une vie de cour réglée par un minutieux protocole. 'Abd al-Raḥmân III avait le sens de la majesté royale. Au cours des réceptions donts les auteurs arabes ont décrit le faste, le calife, assis sur son trône, tenant un sceptre à la main, était entouré de ses fils et de tous les hauts dignitaires de son Etat. Des tapis recouvraient le sol, aux murs on accrochait des tentures de soie; aux portes et aux fenêtres étaient suspendus des rideaux de brocart. 'Abd al-Raḥmân III vécut dès lors dans un luxe qui impressionna ses sujets et ne se montra plus aux Cordouans qu'au milieu d'un brillant cortège. Devenu presque inaccessible, ce souverain autocrate eut droit de vie et de mort sur ses sujets. Chef

Une figure de proue de l'Espagne musulmane: 'Abd al-Raḥmân III, émir et calife de Cordoue

par: Rachel ARIE (Paris)

Souverain hispano-musulman, 'Abd al-Raḥmân III appartenait à la dynastie umayyade que son ancêtre, 'Abd al-Raḥmân 1er dit l'Immigré avait fondée en espagne au IIe siècle de l'Hégire / VIIIe siècle de l'ère chrétienne après avoir échappé au massacre des membres de la famille umayyade par les 'Abbâsides.

Le septième émir umayyade d'Espagne, 'Abd Allâh, avait désigné de son vivant son petit-fils 'Abd al-Raḥmân comme héritier et l'avait choisi pour la clarté de son intelligence, pour son courage et sa ténacité. 'Abd al-Raḥmân avait eu une adolescence studieuse. Les chroniqueurs arabes vantent son caractère généreux et bienveillant, ses manières courtoises. Il accédait au trône à l'âge de vingt-et-un ans en 300/912. Il avait un aspect agréable, quoique trapu. Ses traits étaient réguliers; de sa mère, une captive vasconne, il tenait des yeux couleur bleu foncé et des cheveux blonds tirant sur le roux qu'il teignait en noir.

L'émir 'Abd al-Raḥmân entreprit dès son avènement de pacifier le territoire del'Espagne musulmane et de restaurer l'autorité royale, secouée sous le règne de son grand-père par trois importants foyers de révolte. Dans l'Andalousie du Sud, un chef local 'Umar Ibn Ḥafṣûn, descendant d'Espagnols convertis à l'Islam, s'était fortifié depuis trente ans au cœur de la région montagneuse qui entoure Ronda. De Bobastro, un piton rocheux situé à une trentaine de kilomètres au Nord de Málaga où il s'était retranché, il donnait des ordres à de petits seigneurs andalous. 'Abd al-Raḥmân III se mit lui-même en route pour étouffer la rébellion andalouse. Après avoir minutieusement préparé sa campagne, il s'attaqua aux châtelains de l'Andalousie orientale qui furent vaincus assez rapidement. Puis, en 301/914, il porta ses efforts vers les régions de Málaga et de Ronda; il réussit à isoler Ibn Ḥafṣûn das sa forteresse de Bobastro. Entre 301/913 et 305/917, les aristocrates arabes de Séville et de Carmona, les Banû Hadjdjâdj, furent définitivement vaincus et Séville se soumit à la couronne andalouse.

Après la mort d'Ibn Ḥafṣûn en 305/917, ses fils abandonnèrent la lutte. 'Abd al-Raḥmân III s'empara alors de Bobastro en 315/928. Il put ensuite réduire le second foyer de révolte: la principauté de Badajoz en Estrémadure où une famille arabe, les Banû Marwân, s'était soulevée depuis cinquante ans contre l'autorité des Umayyades de Cordoue; 'Abd al-Raḥmân III prit Badajoz au cours de l'année 318/930. Enfin, à Tolède où la révolte régnait depuis plusieurs années,

vista - un sacrificio más en beneficio de la investigación científica especializada en nuesto país, aunque se le hace así cada vez más difícil sufragar sus gastos. Esperamos que todas las instituciones - dentro y fuera del país - comprendan el alcance de dicho sacrificio. Ello consolidará nuestra fe en los valores inmutables de la investigación y nos llevará a seguir en nuestro empeño con esmero y ahinco, sin esperar ni provecho ni tributo.

V - A través de este desafío y de este sacrificio, la revista Dirāsāt Andalusiyya intenta asentar - en la Túnez de la era nueva en que la cultura se considera como uno de los factores de desarrollo - los fundamentos de la investigación científica y crear en colaboración con la Asociacíon Tunecina de Estudios Andalusíes un clima propicio al díalogo norte-sur entre civilizaciones antigüas cuya influencia pretérita y presente sigue vigente en las dos riberas del Mediterráneo. Para quien crea en una cultura anténtica, ello justifica la amplitud del desafío y del sacrificio que consentimos.

Dr. Jomma CHEIKHA

PRESENTACION

V° Aniversario

Con la publicación de su décimo número,la revista "Dirāsāt Andalusiyya" cumple cinco años ... Ello da prueba de que :

I - La iniciativa privada en el ámbito cultural aún necesita - pese a su éxito relativo - el apoyo moral y material de varias instancias, debido a las inmensas dificultades y múltiples estorbos a los que resulta enfrentada.

II - Ante la reducción del volumen de tirada del número nueve de más de la mitad, algunos han pensado que para "Dirāsāt Andalusiyya" la cuenta hacia atrás ha empezado y que la revista está en las últimas.

III - Si la literatura es una tragedia o no es, la cultura en el tercer mundo es un desafío o no es. Así que "Dirāsāt Andalusiyya", en vez de aumentar su precio a causa de la reducción de su tirada, ha mantenido el mismo precio con el fin de romper el círculo vicioso en el que está la mayoría de las revistas especializadas.

IV - Esta medida difícil de tomar es - por parte de la re-

SOMMAIRE

*****

Revue d'Etudes Andalouses

1993/1414

Tunis

Revue d'Etudes Andalouses

Revue scientifique spécialisée dans les études concernant l'Espagne Musulmane.

Fondateur et Directeur
Jemaâ CHEIKHA

2 numéros par an qui paraîtront en Janvier et en Juin.

Abonnement Annuel : 10 Dinars Tunisiens
Prix d'un numéro : 5 Dinars Tunisiens

Le montant de l'abonnement peut-être réglé.
- Soit directement au C.C.P. 543 - 94
- Soit par chèque bancaire. Dans ce cas, la commission bancaire est à la charge de l'abonné.

Pour toutes correspondances et abonnements écrire à l'adresse suivante : Cheikha Jemâa B.P. N°. 51. 1008 Tunis - Bab Manara - Tunisie. Tél: 227.616.

Etudes Andalouses

Moharram 1414

N 10 Juin 1993

